سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الثاني

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الثاني

من يعرف الوردة؟

منشورات الجمل

ولد **سعدي يوسف** في البصرة عام ١٩٣٤. تخرّج من دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٥٤. عمل في الصحافة وتنقل بين عدة بلدان ويقيم اليوم بلندن. نشر العديد من الترجمات الشعرية والنثرية، وكتب القصة والرواية، ترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ونال جوائز أدبية في البلدان العربية والأوروبية. من أعماله وترجماته: **القرصان**، شعر (١٩٥٣)؛ **أغنيات ليست للآخرين**، شعر (١٩٥٥)؛ **قصائد مرئية**، شعر (١٩٦٥)؛ **بعيداً عن السماء الأولى**، شعر (١٩٧٠)؛ **نهايات الشمال الأفريقي**، شعر (١٩٧٢)؛ **الأخضر بن يوسف ومشاغله**، شعر (١٩٧٢)، **والت وايتمان: أوراق العشب**، ترجمة (١٩٧٦)؛ **تحت جدارية فائق حسن**، شعر (١٩٧٤)؛ **قصائد أقل صمتاً**، شعر (١٩٧٩)؛ **خذ وردة الثلج، خذ القيروانية**، شعر (١٩٨٧)؛ **قصائد باريس، قصائد إيثاكا**، شعر (١٩٩٢)؛ **كافافي: وداعاً للاسكندرية التي تفقدها**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **يانيس ريتسوس: إيماءات**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **لوركا: الأغاني وما بعدها**، ترجمة (١٩٨١)؛ **فاسكو بوبا: شجرة ليمون في القلب**، ترجمة (١٩٨١)؛ **غونار أكيلف: ديوان الأمير وحكاية فاطمة**، ترجمة (١٩٨١)؛ **أونغاريتي: سماء صافية**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هولان: قصائد**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هنري ميللر: رامبو وزمن القتلة**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **نغوجي واثيونغو: تويجات الدم**، ترجمة (١٩٨٢)؛ **ديفيد معلوف: حياة متخيلة**، ترجمة (١٩٩٨)؛ **وولي سوينكا: المفسّرون**، ترجمة (١٩٨٦).

سعدي يوسف: **الأعمال الشعرية، الجزء الثاني: من يعرف الوردة؟**

الطبعة الأولى

خطوط الغلاف: الفنان علي عاصي

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

قصائد أقل صمتاً

(١٩٧٩)



أجسادُ الشبان هذه،
هؤلاء الشهداء المعلَّقين من المشانق ـ
هذه القلوب التي اخترمها الرصاص الكالح،
والتي تبدو باردةً، جامدةً،
إنها لتَحيا في أمكنة أخرى، متدفقة الحيوية.
إنهم يَحْيون في شبان آخرين، أيها الملوك!
إنهم يحيون في أشقَّاء مستعدين لأن يَتَحدُّوكم ثانيةً.

والت ويتمان

القنفذ

يكمنُ في قارتهِ القديمةْ
منكمشاً، بين ترابِ الشمسِ والعشبِ المسائيّ
وحيداً،
بطنُه الأبيضُ مشدودٌ كجلدِ القوسِ
والعينان تشتفان صوتَ النملِ
والرجفةَ في الماء الذي يخترق الجذعَ
وتشتفَّان ما يلمسه الطفلُ إذا جُنَّ
وما يلبسه الليلُ إذا جَنّ
وما تأتي به الأشجارُ، أو تأتيه. . .
والقنفذُ
هذا الكامنُ المأخوذُ بالأشياء في قارته القديمةْ
والمُحْتَبي في الغفلة العظمى
الذي إن ظنَّه الأطفالُ يوماً ـ
كُرةَ الأسمالِ يلهون بها،
أو حسبتْهُ المرأةُ الصخرَ الذي يَدلكُ رجليها
وأفعى النخل إن ظنته فأراً هامداً ـ
ما حَلّ من حَبْوَتِه.

لكنه في أولِ الليلِ
وفي قارته القديمةْ،
يسعى
بطيئاً
ضاحكَ العينين
مسروراً بأن الأرضَ فيها هذه الفتنةْ.

بغداد، ١٩٧٩

العام الثالث عشر

«في الذكرى الثالثة عشرة لانطلاقة الثورة الفلسطينية»

«١»

البرزخ

حجرةٌ في الطابق المفردِ. . .
بابُ الحجرةِ المصقولُ باللمس، وبالأغشية المضطربةْ
ظَل مفتوحاً على كل المصاريعِ
بسيطاً، مستفزاً،
أيها الطفلُ الذي علَّمه القرآن حرفَ العطفِ:
مَن يدخلُ في الحجرة، في مقتبلِ الليلِ؟
من «السلمان» سُلِّمنا
ضُربنا عند باب السجنِ،
مثلَ القمل فُتِّشنا
ولم يتركْ لنا السجَّان حتى لمسةَ القرآنِ.
بابٌ،
حجرةٌ في الطابق المفردِ. . .
بابُ الحجرةِ المصقولُ باللمس، وبالأغشية المضطربةْ

ظل مفتوحاً على كل المصاريعِ. . .
تُرى. . . من يدخل الليلة؟
في سيارةٍ من «نقرة السلمان». .
في راياتِ بتروغرادَ،
في عينين من غزّةَ؟
سُلِّمنا إلى حراس «بعقوبةَ»:
يا أرضَ النتوءاتِ التي تركلُ حتى كلماتٍ
بلَّغتْها قوةَ الحلم،
ويا أرضَ الجنود الكتبةْ. . .
هذه الحجرةُ في آخر «بعقوبة»
هذي الحجرةُ المقتربةْ. . .
من تُرى يدخل فيها؟
من ترى يحسبها مثواه، أو مضطرَبهْ؟
حجرة للمشنقةْ
حجرة أم حَدَقةْ؟
حجرة لم يكفِ .T.N.T عليّ بنِ محمدْ
وبيانُ «الجبهة الحمراء» أن تُنسَفَ. . .
مَن يدخلُ فيها؟

«٢»

التنفيذ

تستقيمُ المشنقةْ
أبداً في آخر الحجرةِ. . .
كان الخشبُ المدهونُ باللمسِ وبالجهشةِ
فظّاً، مستقيماً:
تستقيمُ الطبقةْ.
يدخلُ الحجرةَ عشرون نبياً،
يحملون الورقَ الجاهزَ، والقهوةَ، والأحكامَ
والليلَ الذي غادرَ. . .
عشرون نبياً أحدقوا بالمشنقةْ،
وضعوا الطفلَ الفلسطينيّ في دائرة الضوءِ:
عمودُ المشنقةْ
كان مما قدَّروا أعلى.
وحبلُ المشنقةْ
كان مما حسبوا أغلى.
ومعنى المشنقةْ
كان مما فكّروا أجلى.
على كوفيةِ الطفلِ الفلسطينيّ
أحداقُ الذين استمتعوا

بالدم الشاهدِ.
أحداقُ الذين استمعوا
لأنينِ العشبِ إذ يدخلُ ما بينَ حذاءِ الطفلِ والأرضِ...
وأحداقُ الذين ارتقبوا
قِبلةً بين مدارَينِ:
البساتينِ، وعودِ المشنقةْ.
....
....
....
يقفُ الطفلُ الفلسطينيُّ في الحجرةِ:
يصغي الأنبياءْ
لصريرِ الحكمِ،
تصغي الطبقةْ
للإراديةِ،
تصغي المشنقةْ
لأغاني الطفلِ...
في الساحةِ، كان الفجرُ مبتلاً
وفي الحجرةِ كان العنْقُ المائلُ مبتّلاً
وفي الكوفيةِ الملقاةِ في زاويةِ الحجرةِ...
أحداقُ الذين ارتقبوا
قِبلةً بين مدارينِ:
البساتينِ، وعودِ المشنقةْ.

«٣»

بيسان

بعد أن متنا، عرفنا الأرضَ.
سمَّينا الذي لم يكن الهجسُ يسمِّيه. . .
دعَونا الشجرَ الطالعَ «بيسانَ»
وصدرَ الأمّ «بيسان»
وعنقودَ الخريفِ الشُهْدَ «بيسان»
وسمَّينا ضريحَ الطفلِ «بيسان»
وقُلنا للرصاصاتِ التي تصدأُ في أليافنا:
تبدأُ بيسان
انتهى البدءُ
ومن كلِ الخلايا نهضت «بيسان»
من كلِ الدهاليزِ التي تكتظّ بوَّاباتُها
بالزخرفِ الموروثِ
من كلِ المرايا.
هكذا نقرأُ بيسانَ على الصخر الذي علَّمَنا
كيف نغدو الماءَ، أو نعدو سرايا،
وهي «بيسانُ» قرأناها طويلاً
في القرى تُمحى
وفي الفانوس يهتزّ ضئيلاً

وقرأناها بعينِ المنشدِ الأعمى
قرأناها سقوفاً من صفيحْ
وقرأناها صفوفاً
وحفرناها على الأرضِ التي لمَّا نزلْ نُطردُ منها
وقلبناها، وركَّبنا حروفاً وحروفاً
وبرأْناها ضِماداً للجريحْ.

«٤»

نذور

للفتى «بيسان» غنَّينا
وصلَّينا
وقدّمنا نذورَ الفقرِ والتنظيم
قدّمنا الجذورَ المُرّة الأولى
وقدّمنا الثمرْ.

«٥»

الجلسة

حكماءُ البدوِ في الخيمةِ.
«بيسانُ» الفتى يدخلُ.
«بيسانُ» الفتى يخرجُ.
والجلسةُ ما زالت:
يدير الحكماءُ الملتحون القهوةَ المرةَ
والخاتمَ
والتاريخَ...
يمشون على آثارِ موتاهم
على آثارِ عشرينَ نبياً قتلوا طفلاً
ويستنُّون ما قالوا شريعةْ.

«٦»

العام الرابع عشر

بينما تصرخُ في شهرِ شُباطَ القططُ السودُ
وترتاحُ الصبايا
وإذ يُراقَبنَ،
وإذ يرقُبنَ،
تأتي نسوةٌ في أولِ الليل، ويُخبرنَ الصبايا
أن «بيسانَ» الفتى غابَ
وأن الدركَ الليليّ يرتادُ الزوايا
باحثاً عنهُ. . .
الهلالُ الطفلُ في غيمِ شباطَ الداكنِ استخفى
وأخفتْ زوجةُ النجَّار طفلاً ضاحكاً في كومةِ القشِّ.
الرجالُ انتظروا يوماً، فيومين
النساء انتظرتْ شهراً، فشهرين
الصبايا انتظرتْ عاماً، وعامين
و«بيسانُ» الفتى الغائبُ، في غيبتِهِ. . .
أيَّانَ يأتي؟
أيُّ وعدٍ في السماوات التي تنهدُّ بالرعدِ؟
وأنَّى موضعُ الغيبةِ؟

«بيسانُ» الفتى، غاب...

وكالغائب، والغيبة... كانت عشبةٌ تنبتُ في

الأرض الخراب.

بغداد، ١٩٧٨

الجواهري

حين رأى الجواهريُّ، الجنَّ بين الصخرْ ـ
تقفزُ،
أو تندسُّ تحتَ الرملْ
أقامَ من ضفدعهِ المبتلِّ والمختلّ
دارتَه المُثلى،
وبيتَ العقلْ.
. . . .
. . . .
. . . .
لكنما أبو فراتٍ حينَ أكملَ القصيدةْ
واستلَّ من سيجارةٍ مدعوكةٍ،
أخرَ ما يؤرّثُ السيجارةَ الجديدةْ
أغمض عينيه على كأسٍ من البيرةِ
في مقهى
يَبعدُ آلافاً من الأميالِ
عن ضفدعهِ
والدارةِ المثلى
وبيتِ العقلْ.

بغداد، ١٩٧٨

طيران

غيمةٌ في الضحى تتدحرجُ . . .
لو كنتُ طفلاً
لأمسكتُها بيدي
ثم ألقيتُها في الحديقةْ
كُرةً . . .
ودخلتُ الكرةْ
وأمرتُ الكلاب :
انبحي . . . كي أطير .

بغداد، ١٩٧٨/٩/٢٤

الأيائل

كيف تغدو السماءْ
خطوةً واحدةْ؟
كيف تغدو الجذورْ
تاجَنا؟
كيف تغدو المدينةْ
جبلاً؟
. . . .
. . . .
. . . .
في الجبالْ
في ظلام الجبالْ
تتمشّى الأيائلْ.

بغداد، ١٨/ ١١/ ١٩٧٨

الجنة

ينامُ في «مكتبةِ الريّ»،
ينامُ النهرُ في صمتِ التقاريرِ
السدودُ استُودِعتْ،
والفيضاناتُ التي روَّضَها الرفُّ الحديديُّ ـ
ترابٌ يمسح الأهدابَ.
هل يقرأُ حتى تنطفي عيناه؟
هل يمحضُ أرضَ اللَّه، ما يمحضُ، حتى آخرِ العمرِ؟
السنون ازّاحمتْ مغبرةَ الأهدابِ في «مكتبة الريّ»،
وفي «مكتبة الريّ» ينامُ النهرُ
حراً، نَضِراً، منتظمَ الأنفاس
لا بأس،
فهي الحجرةُ الموعودةُ:
الجنةُ،
والسقفُ الذي سمَّيتَهُ (في الغربة) الأسماء.

بغداد، ٢٤/ ١٠/ ١٩٧٨

خماسية الروح

«١»

يومَ عالجتُها بِالترابْ
ـ هذه الروحَ ـ قال الترابْ:
بالضياء احترقتُ.
كيف يمضي إلى كوكبٍ ليس يعرفُه؟ هذه الطرقُ
المستقيماتُ ماثلةٌ منذُ أن كان طفلاً. . . وهذا الترابُ
الذي ظلَّ دهراً يُبعثره، أو يسفُّ احتمالاتِه: البذرةَ
الأمَّ، والدّرْنةَ القاتلةْ.
بالأظافير يحتثُّهُ، بالأكفِّ الرقيقاتِ يَحْثوهُ. . .
هذا الترابُ الجميلُ، الترابُ المموَّهُ بالناس، من أينَ
يأتيهِ؟ من أين يقتادهُ للمتاعبِ؟ دارتْ به السنواتُ:
الترابُ المبعثرُ بين أصابعهِ، والسبيلِ المبعثرُ،
والنظرةُ الحائلةْ.

«٢»

حين عالجتُها بالهواءْ
ـ هذه الروحَ ـ قال الهواء:

يومَها، ما هببتُ.

هو، والبحرُ، كانا شقيقينِ... ذاك الهواءُ المشبَّعُ
باليودِ، والسمكِ المتعفنِ، والثوم... ذاك الهواءُ
الذي يتسربُ بين القواقعِ، والهبَّةُ البكر تُزهرُ
فقَّاعةً...

هو، والبحرُ، كانا شقيقين... من يملأُ الرئةَ اليومَ؟
إني أحشرجُ بين الرفوفِ التي سكنتها الرواسبُ،
والفيضاناتْ...

هذا الهواءُ الذي جاء من نينوى، والهواءُ الذي ظلَّ قنينةً...
والهواءُ ـ الهواءْ.

«٣»

يومَ عالجتُها بالحجرْ
ـ هذه الروحَ ـ قال الحجرْ:
هل أكونُ انتهيتُ؟

كم دُفعنا إلى حجرٍ، كي نطوّف دهراً بهِ...
أمس قلَّبتُه في يدي... أيها الحجرُ النيزكُ، الحجرُ
الأبيضُ، الحجرُ المتلونُ: أيَّ زمانٍ قطعْنا معاً!
أيَّ أرضٍ حللنا! وأيُّ مواطنَ لم تنفتحْ وطناً!
ربما كنتَ لي ساعداً يومَ كنا صغاراً... وصرتَ الهراوةَ
في الرأس حيناً. ولكننا الآن ندّان: أنتَ الذي

جئتَ من أول الكون. . . هل جئتَني؟ وأنا الناهضُ
ـ الدهرَ ـ هل أنثني؟

«٤»

يومَ عالجتُها بالشجرْ
ـ هذه الروحَ ـ قال الشجر:
كالتراب احترقتُ.
شجرات الطفولةِ، يا شجراتِ الطفولة، يا شجراتِ الطفولةْ
لنكنْ مرةً واضحِينْ،
لنقلْ مرةً إن أقسى الحنينْ
نُدبةٌ في الجبينْ.
لنقلْ مرةً إن أبهى الغصونْ
ما اختفى في العيونْ.
لنقلْ إننا ما عرفنا الطفولةْ:
أنت يا شجراتِ الطفولةْ
كنتِ ممتدةً. . .
وأنا كنتُ أبكي.

«٥»

يومَ أطعمتُها نارَها
قالت الروحُ:
إني استرحتُ.

طلْقةٌ هذه الروحُ . . .
مجنونةٌ، هي لا تشتري بالفداحةِ غيرَ عذاباتِها .
تستجيرُ بـ «رامبو» لتأخذَ من شُحُناتِ بنادقِه
الحبشياتِ واحدةً . تهبط الليلَ في الماءِ مأخوذةً
بارتعاشاتِ بشّارٍ المحتضَرْ .

طلقةٌ هذه الروحُ . . .
هل سوّرتْها سماءٌ؟ وهل صوَّرتْها ممالكُ مثلَ
المماليكِ، هل أودِعتْ في روائحِ طابوقةٍ منذُ بابلَ؟
نيرانُ جنٍ يغنُّونَ، أم نارُ مجمرةٍ عندَ رأسِ
الشهيدِ . . أم الغائبُ المنتظَرْ؟

طلْقة هذه الروحُ . . .
كالريحِ تعوي وتذوي
وكالريحِ تذوي فتعوي
وكالريح تعوي . . . وووووووي . .

بغداد، ٧/ ١١/ ١٩٧٨

صباح الخير أيها الفاكهاني!

صباحَ الخير!
صباحَ الخيرِ أيتها الشوارعُ والبنادقُ. . .
يا صباحَ الخيرِ
يا «بيريَّةً» حمراءَ، يا شمساً على شَعرِ الفتى. . .
ولكم صباحُ الخيرِ، حرّاسَ المقرِ
لفُوَّهاتِ الليلِ، سرِّ الليلِ
للتعبِ اللذيذِ على عيونكم الجميلةِ.
يا صباحَ الخير للأطفالِ في زيّ المدارسِ
للصبايا يَشتهِينَ
ويُشتهَينَ
لقهوةٍ عند الرصيفْ.
لأمّ نبيلٍ. . .
ابتسمي!
صباحَ الخيرِ، أمَّ نبيلٍ. . . ابتسمي!
صباحَ الخيرِ، شايَ أبي عليٍ. . .
أيها المتحرقون إلى أزيزِ الطائراتِ،
على مدافعكم. . .

صباحَ الخير.
صباحَ الخير، عمَّالَ ـ القمامةِ.
للمذيعةِ
للشبابِ المتعبينَ من النقاشِ
لصمت «توليدو»
لمن عَرضَ «الشغيلةَ» مرَّتين عليّ. . .
للطلابِ يجتازون، في المقهى، مراحلَهم
صباح الخير.
صباح الخير للثوراتِ تنفجرُ
كفرقعة الفقاقعِ، في مُسَوّدة «البيان» الطفلِ،
للثوريّ في المقهى: صباح الخير!
للثوريّ في قلبي: صباح الخير!
لامرأتي، صباح الخير
صباح الخير
صباح الخير
صباح الخير!

بيروت، ١٧/ ٤/ ١٩٧٩

الرماة

«إلى ابن خلدون»

«١»

بعد أن داروا على رملتهمْ
شقّقوا أقدامَهم فارتحلوا
الأقانيمُ على أحداقهم
والأقاليمُ تراها الإبلُ
في السماءِ التي تجفُّ، رأينا العشبَ، نحن الموكَّلينَ
بأرضٍ من قبورِ البناتِ والفتيةِ العشّاقِ. للحربِ
نستديرُ، وللحبّ نغني. أمانةَ اللَّه، ما كنا الرجالَ ـ
الموكَّلينَ بقتلِ النفسِ، لكننا نموتُ إذا لم نقتلِ
البذرةَ المعدّة للعشبِ، إذا لم نضعْ دماءَ غزالٍ
فوقَ كفّ العروسِ. كان لنا بيتٌ، وطُفنا بهِ
زماناً، تُرانا قد نسينا ما كان يكتبهُ الرمحُ على الرمل،
أم نسينا ارتطاماً بحدودٍ؟ بلادَنا؟ نحنُ
لم نعرف بلاداً، خيوطُنا الغزْلُ نرميها فنثوي،
هذا الحِمى كالسرابِ، الليلَ خطَّتْ عصا بلاداً،

وفي الصبحِ انتهى الرملُ من تهاويلِ أهراماتِه. . .
بعضُنا كان ضاربَ السيفِ. . . من نضربُ؟
أهراماتِنا التي قد بناها الرملُ؟ أحجارَنا التي
قد عبدناها، النساءَ المعذباتِ؟ الرجالَ الجائعين؟
انتهت مضاربُنا يوم رأينا السماءَ سدرتَنا:
أغصانُها الجدولُ العراقيُّ والطيرُ. انتهينا إذن،
وقهوتُنا ظلّت بلا سُكَّرٍ. . . مرارةُ هذي الأرضِ
دارت قصائداً، نحن نتلوها على ميتينَ، أو عُلِّقتْ
حولَ الصخورِ النيازكِ. الرملُ في أفواهنا
غُصَّةٌ، وماءُ العراقينِ: الملاذُ العظيمُ، خيماتُ
أولادِ الأفاعي، خيماتُنا الوبُر الفظُّ، الجِمالُ
السليبةُ، النسوةُ اللائي خطفْنا. العراقُ يمتدُّ
خطينِ. المياهُ احتراقُنا، نظرةُ الفلاّحِ تلقي
بنا إلى رُبعنا الخالي، ولكننا سنأتي: العراقُ ـ
العشبُ، مرعىً لنا، وبستان موتانا، العراقُ ـ
الفلاّحُ، أهراؤنا، صندوقُ أشياخنا، نقبِّلُ
هذا السيفَ، نستلُّهُ من الإبل العطشى. . . ونمضي
به، البُداة يجيئون، الكتائبُ، الصيحةُ،
الأرجالُ، قاماتُنا النحيلةُ كالأرماحِ تمضي
إلى العراق العراق.

«٢»

ربما مرّتْ على أهدابنا
خفقةٌ خرساءُ ممن قُتِلوا
ينبتُ العشبُ على أجسادهم
حين تشتو الريحُ أو تنتقلُ
ربما مرتْ بنا، لكننا
كلَّ عامٍ، بينهم نحتفلُ
جاءنا في القريةِ النوروزُ. كانتْ فتياتُ الحَضَرِ البضَّاتُ
يرشقنَ زهورَ الحقلِ في كَذلاتهنّ. الصِبيةُ الأيتامُ
(آباؤهمو قتلى بأيدينا) يغنُّونَ وراءَ الفتيات:

لو هلهلت يا ميَّاسةْ
تأتي الفرسانُ الدوّاسةْ
لو هلهلتِ يومَ الحنَّةْ
تأتينا أغصانُ الجنةْ
لو هلهلتِ
يا ورداتي

يهبط الصوتُ على أسماعنا، يُحرقنا كالماءِ: فلاّحونَ
في النوروزِ. مَن نحن؟ بُداةٌ دخلوا القريةَ بالسيفِ،
أقاموا خيمةً أخرى من الطينِ بأقصاها، وبعدَ الإبلِ
العجفاءِ صاروا يحلبونَ البقرَ الفاقعَ، نيرانهمو الروثُ،
وأضيافهمو أهلُ الربابات. يمرُّ الصِبيةُ الأيتامُ

(آباؤهمو نحن قتلناهم) يغنُّون. ونحن البدو مرميونَ
في خيماتنا الطينِ. أولاءِ الحضرُ التمُّوا على أشجارهمْ.
والبدوُ؟ نحن البدو ملتمُّون حول البقرِ ـ الإبْلِ،
نرى عبرَ الرباباتِ: صحارانا، وفي أدخنةِ الروثِ:
بخورَ الشيحِ والقيصومِ. ليلُ الحضرِ المسكونُ بالماءِ.
وفي الليلِ تشفُّ القهوة المرّةُ (مرميون في القريةِ
لا طعمَ لنا)، أهزوجةُ النوروزِ تأتي من بعيد:

لو هلهلتِ يا ميَّاسةْ
تأتي الفرسانُ الدوّاسة
لو هلهلتِ يوم الحِنَّةْ
تأتينا أغصانُ الجنةْ
لو هلهلتِ
يا ورداتي

«٣»

آنَ أن ننفضَ عن أقدامنا
حبةَ الرملِ، ونعلَ ـ الأَدَمِ
آنَ أن نحفر في قريتهم
خندقاً أعمقَ من خيطِ الدمِ
إذنْ، فلنكنْ حضراً. . . هل تكونُ البدايةُ أن
نرتدي ما نشاءُ. . . السراويلَ أو زهرةَ الرازقيّ؟
ولكنهم يضحكونَ، الصغارُ الذين فتكنا بآبائهم
يضحكونَ. . . تُرى ما نزالُ البُداةَ؟ وهل ذبلتْ

زهرةُ الرازقيّ وقد أُلصقتْ بحراشيفنا؟ كيفَ
نغدو هنا القرويينَ؟ هل تستوي زهرةً إبرةٌ
غُرزتْ في الجبين؟ العراقُ المراوغُ ينأى بنا
عن بساتينه. فلنكنْ مرةً حضراً. فلنراوغْ
مع الماءِ هذا العراقيَّ، ولنفتتحْ سوقَنا:
(عصبة من شيوخ البُداةْ
وأبنائهم. عصبة من رُماةْ
أقاموا معسكرهم في أعالي الفراتْ
ومن يأتِهِمْ يلقَهُم).
ولكنهم لم يجيئوا، وظلَّ المعسكر.. ساحاتُهُ
في الليالي الشتائيةِ الوحلُ. ساحاتُه العِثْيَرُ الصيفَ.
ظلَّ المعسكرُ مستوحداً في أعالي الفرات ـ هو الطينُ
يأكلُ زيتَ البنادقِ، طينُ العراق القديم... تُرى:
هل سيختم أعمارَنا والمعسكرَ؟ هل نكتفي بالتطلعِ
نحو مصيرِ الرقيم؟ المعسكرُ مستوحدٌ في الشتاء:
أتوا، هكذا، بغتةً...
أتونا ثلاثتهم... والوجوهَ الدنانيرَ. لم يبصرِ
الحضريُّ العراقيُّ أمثالَها. نحن في السوق ـ
قال الثلاثةُ: «فلنقتسمْ» ـ
لكمو كلُ ما هو فوقَ التراب
ولنا كلُ ما هو تحت الترابِ
هكذا، قاسمتْنا الملوكُ الثلاثةُ. في الليل أقسمَ

كلُ الرماةِ. وفي الفجر كان العراقُ المراوغُ مقتسَماً
بيننا:

للملوكِ الثلاثةِ ما هو تحت التراب
ولنا كلُ ما هو فوق التراب

«٤»

فليكنْ! قد دارت الدنيا لنا
دونَ أن نعرفَها كيف تدورْ
أهُمُ الناسُ تراموا كِسَفاً
بين أيدينا، فأمسَينا البذورْ
قد جاء أبناءُ العمومةِ، مثقلينَ من الأقاليمِ البعيدةِ،
في الحقائبِ ترفع الليراتُ أعناقاً. وعند شواطئ
الأنهارِ ترتفعُ المنازلُ. أمسِ حين سألتُ عن حرّاسِنا
قربَ المعسكرِ لم أجدْهم. في المساءِ رأيتُهم في دارةِ
«اسطيفانَ» مختنقينَ خمراً، والبنادقُ تحتَ أثوابِ
العواهرِ. قلتُ: «أمضي للأمير». مضيتُ،
عندَ القصرِ أوقفني الجنودُ. رُدِدتُ. كانت حانةُ
«القمرِ المهددِ» في طريقي. قلت: «فلأدخلْ». دخلتْ.
رأيتُ كتَّابَ الأمير. سألتُهم، وخرجتُ. هل أمضي
إلى «قيثارةِ العميانِ»؟ رُبتما سمعتُ قصيدةً وشربتُ
كأساً. لم تكن «قيثارةُ العميانِ» قد فُتحتْ. طرقتُ
البابَ. قالت لي فتاةٌ:

ـ غادرَ الشعراءُ.

● أين؟

ـ إلى الوليمةِ.

● كلُّهم؟

ـ كلُ الذين عرفتَهم.

ودّعتُها قبلَ انطباقِ البابِ. ثم مضيتُ عبرَ أزقةِ الفقراءِ، نحوَ النهرِ مغتمّاً. جلستُ ونخلةُ قربي، وفَيءُ شُجيرةٍ، والنهرُ تقطعهُ الزوارقُ والشِباكُ.

وفجأةً:

أُلقيتُ أرضاً.

قيَّدوني بالحبالِ

سألتُهم: ماذا فعلتُ؟

فلم يجيبوا.

أركبوني زورقاً، ومضَوا خفافاً صامتينَ. هناكَ عند الضفةِ الأخرى، قلاعُ السجنِ، معتمةٌ ثقيلةْ

«٥»

نفخَ الخيمةَ حتى خالَها

تجمعُ العالمَ من أطرافهِ

ثم لم يعرفْ بها إذ نالها

ما ينالُ الطينَ من خَزّافِه.

يقفُ البدوُ مستنفَرينَ. المدينةُ نائمةٌ. والقصورُ التي هَرِمتْ في السنين الأخيراتِ، تهبطُ في الماءِ،

شيئاً فشيئاً، على شاطئ النهرِ تبدو القلاعُ.
الزوارقُ مشدودةٌ بجذوعِ النخيل. المعسكرُ
مستوحدٌ في أعالي الفراتِ، وحرّاسُه غادرَوا.
الحانةُ استقبلتْهم. ومن قمةِ السورِ تلمعُ نارُ البُداةِ.
يَشِفُّ النسيمُ النديُّ. تُسِفُّ الوريقاتُ في منزل
الفيلسوفِ المزيَّفِ. في البُعدِ نيرانُهم. يقفُ البدوُ
مستنفَرينَ:

العراقُ ـ المياهُ
العراقُ ـ الملاذُ
العراق ـ المراعي
العراق ـ القرى

إنهم يعرفونَ. البرابرةُ استجمَعوا للصلاةِ الأخيرةِ
أربابَهم. والمدينةُ من ليلها الحضريّ. النساءُ الجميلاتُ
يرقُصنَ فوقَ السلاحِ المبللِ بالخمرِ. في قلعةِ السورِ
يُقطَعُ عنقُ المغنِّي. يقفُ البدو مستنفَرين. أتَمُّوا
الصلاةَ الأخيرةَ. باركَهم ربُّهم. والمدينةُ في فجرِها
الحضريِّ. النساءُ الجميلاتُ يرقدن بين السلاحِ
المبللِ بالخمرِ.
في قلعةِ السور يعلو الأذانُ
المدينةُ جاهزةٌ...
والرماةُ هم القادمون.

بغداد، ١٩٧٨

استغفار

أعطِني من ثوبكَ المُلقَى على الشاطئِ
ما يسترني.
أعطني من كَفَني
بعضَ ما يسترني الليلةَ ـ عن عينيّ:
عارٍ في السماواتِ التي تشحبُ
عارٍ في السماواتِ التي تلعبُ
عارٍ في السماوات التي سوف تدورُ
الرايةُ الحمراءُ فيها.

*

أيها الطفل الذي يمشي على الماءِ
فنخطو نحنُ في الوحلِ:
لماذا؟

*

قد أراكَ اليومَ في المقهى
وقد ألقاكَ في ضلعي
وقد أسألُكَ المغفرةَ الكبرى،
ولكني أرى وجهكَ بين الشهداء

بغتةً . . .
يا أيها الطفلُ الإلهيّ،
لقد علَّمتَنا كيف يجيء الشهداء
بغتةً . . .
لكننا، كيف نكون الشهداء
دون أن نحملَ أيدينا
ونمضي في قرارِ البحرِ؟
. . . .
. . . .
. . . .
أطلقْنا العصافيرَ
وطلَّقْنا صفيرَ القنبلةْ

*

آه، يا راياتِنا المنخذلةْ!

بيروت، ٢٥/ ٤/ ١٩٧٩

قصيدة

● بين بيتٍ يُسوّرني وسماءٍ طليقةْ
كيف أختارُ بيتي؟

● بين صمتي وأغنيتي
كيف أختارُ همسي؟

● بين أحداقها والثياب ـ
كيف أدخلُ؟

. . . .
. . . .
. . . .
تمتمةٌ من شميمِ الصنوبرِ
همهمةٌ من غصونِ الصنوبرِ
غمغمةٌ في الظلام. . .

بيروت، ٢٨/ ٤/ ١٩٧٩

إنغمار

من تُراها تقتلُ الأخضرَ بِنْ يوسفَ في بيروتَ ـ
من يأتمرُ، الليلةَ، في بارٍ، عليه. . .
من تُرى يقتلُه في دورةِ الشارعِ
أو في دورةِ المقهى
وفي دائرةِ الظلِ،
وفي الدورِ الذي لن يصلَ الخَطُّ إليه. . .
من تُرى يُسْلمهُ للنزْعِ مطعوناً، ومدهوناً بزهر البرتقال؟

*

كلُّ ما قالَ انتهينا منهُ:
ما يحسَبهُ نجماً عرفناهُ
وما كان له بيتاً بلغناهُ،
وذاك الشاطئِ الأولُ. . . رملُ الصبوةِ المسحورُ ـ
مهجورٌ. . .
عظامُ الطيرِ والأسماكِ، والصخرُ الذي ينحلُّ،
لكنْ. . . ذلك الهجسُ الذي لما يزلْ ينبضُ في الأخضرِ فتّاناً. . .
وذاك النجمُ
ذاك البيتُ

هذا الشاطئُ المهجورُ ـ
والمسحورُ في إيماءةِ الأخضرِ. . .
ذاك الهجسُ. . .
تلك القطرةُ الملعونةُ الحرقةِ في آخرةِ الكأسِ الأخير!

❋

يجلسُ الأخضرُ في البار
ـ كما كان ـ
وحيداً.

❋

● ولماذا جئتَهُ الليلةَ؟
هل فكرتَ بالكأس التي يشربها حتى الـ. .؟
ـ ولكني انتظرت
أن أرى صحوتَهُ يوماً. . .
● وهل أيقظتَهُ؟
ـ لا.

❋

بعد حينٍ يقفرُ الشارعُ
في «البستانِ» يخبو الضوءُ،
من غرفته يهجسُ آثارَ الخطى،
ينقطعُ الخطوُ. . .
وفي أبراجِ «توليدو» ينامُ الحارسُ الطفلُ

وتأتي ليلةٌ أخرى،
وتأتي امرأةٌ بالزهرِ، في ثوبِ الحِداد.

❋

حين جاءَ القتلةْ
لم يكن سيِّديَ الأخضرُ في مأواهُ. . .
كانت سدرةٌ مشتعلةْ
تعلنُ الرجعةَ. . .
كان الكونُ مدهوناً بزهرِ البرتقال.

بيروت، ٧/ ٤/ ١٩٧٩

بيت خالي

من بعيدٍ أراكْ
عنباً أو مياهْ
من بعيدٍ أراكْ
هل تراك الحياةْ؟
قيل جئنا إلى بعضنا، واتَّركنا على عتباتكَ
أحذيةَ السفرِ الغُبْرَ، قلنا: «سلاماً... طفولتَنا»،
ودخلنا. فيا ظلمةَ الغرفةِ الجانبيةِ، يا ظلمةَ
البيتِ، من أين نأتيكِ أو نرتديكِ؟ انتهينا
إلى حيثُ كنا. ولكننا في البراري. لماذا، إذن، نحن؟
ماذا انتظرْنا طوالَ السنين... أغرفتكَ ـ الجانبيةَ
يا بيتَ خالي؟ أظُلمتَها في الظهيرةِ؟
بيتانِ أنت: فأيَّ المداخل أختارُ؟ من أين
آتيكَ يا بيت خالي؟

*

نسمةٌ في الهواءْ
تتحرك بين القصبْ

هل يدورُ الهواءْ
في عروقِ العنبْ

❊

خلِّنا نتفيَّأ، أو نفتدي بالعرائشِ ما تركتْهُ
السنونُ على لونِ قمصاننا. خلِّنا نتفصَّدُ تحتَ
العرائشِ، يجري بنا العَرقُ ـ الملحُ، نستفُّهُ
قطرةً قطرةً، همسةً همسةً، واعتراضاً وأسئلةً.
كيف مرَّ الطريقُ بنا؟ كيف كنا المَدينينَ؟
كنا المُدانين؟.. هذا الهواءُ الذي يتثاقلُ
تحتَ العرائشِ: أنفاسُنا أم أنينُ الخلايا؟
ارتكاباتُنا أم نسيمُ الظهيرة، يا بيتَ خالي؟

❊

حين يمضي بهِ
زورقٌ من ورقْ
يصطفي ما بهِ
موجةً للغرقْ.

❊

للمياه التي تصنعُ الكونَ يمضي. لآخرةِ البصر.
البصرةِ، البحرِ، يمضي. وزورقُه ورقٌ أو
صفيحٌ. بلادٌ سماويةٌ بين أهدابهِ والمجاذيفِ.
أنْ يغرقَ اليومَ مستسلماً للمياه، ومستلماً

عشبةً في القرار. البلادُ البعيدةُ وثَّابةٌ
بالكواسجِ. أين المساءُ الذي سوف يُدركهُ قبلَ
أن تغربَ الشمسُ؟ لي منزلٌ في البلادِ
البعيدةِ، لي عشبةٌ، واتِّكاءٌ على صخرةٍ،
ليَ عينانِ مغمضتانِ. . .
انتظرْني إذن.

بيروت، ١٢/٥/١٩٧٩

الوردة المستحيلة

مدن في دمشق:

انتسبتُ إلى بعضها

وتناسبتُ في بعضها

وتناسيتُ بعضا.

مدنٌ في دمشق التي تمنحُ السرَّ أرضا.

❋

أمسِ، في الجامعِ الأمويّ، استندتُ إلى الخالقِ الفردِ،
هذا الرخام الذي يستدقّ إلى أن يشارِفَني، ويغورُ
إلى أن أُشارِفَهُ...
أمس، في الجامع الأمويّ، وفي فيءِ سجَّادةٍ، كنتُ
أقرأُ أسماءَ من سقطوا يحفرونَ الخنادقَ حولَ المدينةِ،
أقرأُ أسماءَ من نحتوا في صخورِ الربيئةِ أجسادَهم.
كنتُ في الجامعِ الأمويّ، وحيداً، يُظللني سقفهُ
المطمئنُّ الثريَّاتِ...
يدنو جناحٌ ويسألني: «هل رأيتَ الحجرْ؟
هل تقرّيتَ هذي الخشونةَ في حَجرِ الجامعِ الأمويّ؟
وهل غرزتْ مقلتا زينبٍ زهرتين على راحتيك؟

وهل كنتَ مستوحداً حين أغفيتَ:
ظهرُكَ لصق العمود
وعيناكَ لصق الحدود؟».

*

منذ عشرينَ عاماً وعامين
لي منزلٌ بدمشقَ العتيقةِ،
جدرانهُ راحتاي
وأشجارُه لهفتي.
منزلٌ في دمشق العتيقةِ
حاذرتُ أن يطأ العابرُ المتعجلُ أعتابَهُ،
أو يراه المُتاجرُ،
أو تدّعيه الغيومُ الجديدةْ
إنه الآن يمشي معي
في البلادِ التي كرهتْ
والبلادِ التي هويَتْ
والبلادِ التي لا أراها.

*

من يكون الملوّحُ بالنارِ في زمنِ القمّةِ العاريةْ؟
من يكون الصديقُ الذي لا يغادرني
عند أولِ منعطفٍ؟
من تكون الفتاةُ التي تتآمر لي؟
من يكونُ الفتى؟

من تكونُ دمشقُ التي تتبرجُ في ليلها؟
من نكون؟
. . . .
. . . .
. . . .
هل أتى حُبنا الصعبُ؟
هل آذنتْ، بعدَنا، الوردةُ المستحيلةُ؟
هل آذنت مدنٌ في دمشقَ:
انتسبتُ إلى بعضها
وتناسبتُ في بعضها
وتناسيتُ بعضا؟

دمشق، آذار ١٩٧٩

نسخة أولى

أحياناً، أحتاجُ فلسطين.
لماذا ينفتح الشبَّاك صباحاً؟
أجلسُ في المقهى، وأفكِّرُ:

*

ما صحفُ اليوم؟
وفي القهوة أشرب نفسي
في الشاي أرى وجه امرأتي

*

كلب تحت المطر النيسانيّ
وحيد...
وأحبكِ يا زائغة العينين
أحبُّ الأثواب الممدودةَ،
تدبيركِ، هذا الخشنَ الأسود
شعرَكِ هذا الأسودَ
عينيكِ السوداوين.
أحبكِ حين تموتين
أحبكِ حين تعودين

وماذا في شفتيّ سوى القهوة والشاي؟
وماذا في عينيّ سوى صحف اليوم. . .
وأنت تعودين من الشاطئِ
مثقلةً بالخبّازي
مثقلةً بالقتلى
مثقلةً باسم فلسطين. . .

بيروت، ٢٢/ ٤/ ١٩٧٩

صداقة

«إلى أدونيس»

حين تمتد كفِّي
لا تصافح إلا أصابعَها.

*

حين تمتدّ كفُّكَ
كيف تصافحُ إلا أصابعَها؟

*

نحن من أنبتتنا البراءةْ
نحن من أنّبتنا البراءةْ
نحن من لا نريد البراءةَ ماضيةْ
لا نريد البراءةَ لاحقةً،
نحن أبناءُ ذاك المسيلِ المحاصَرِ ما بينَ بحرينِ
أبناءُ من يحفرون الجدارَ إلى الفجرِ،
والفجرَ يصحون عند الجدار.

*

ربع قرنٍ أتيناه:
هذا ابنُ تيميةَ المتحولُ رأسَ عصا،
والموفَّقُ يحتزُّ مختارةَ الزنج من رَحِمِ الأرضِ

يركلُنا الشرَطيُّ الدمشقيُّ
يركلنا الشرَطيُّ العراقيُّ
تركلنا شرْطةُ العرب الأمريكيةُ
الإنجليزيةُ
الإنتربول
الفرنسيةُ
الفارسيةُ
شرْطةُ عثمانَ
أو شرْطةُ الحاكمِ الفاطميّ. . .
ويركلُنا أهلُنا
أهلُنا السذّج الطيبون
أهلُنا القاتلون.

*

نحن أبناءُ هذا الجنونْ
فلنكنْ من نكونْ.

*

ليس ما بيننا ثقةً:
بيننا عُنقُ الوردةِ النازفةْ
بيننا تبدأُ العاصفةْ ـ
من عناصرِها. . .

*

فلأقُلْ: إننا نتصافحْ!

بيروت، ٨/ ٤/ ١٩٧٩

من يعرف الوردة؟

(١٩٨١)

موقف

هدوءاً. . .
وكُنْ مثلَ مَن قاتلوا في المَمَرّ
وهم يعلمونَ بأنَّ الممرّ
سيجتاحُهُ كلُ من مرَّ. . .
. . . .
. . . .
لم يرفعوا رايةً
أو كتاباً
ولم يخفِضوا رايةً
أو كتاباً
ولكنهم يحلمون بأنّ الحجرْ
سوف يَسْتَنُّ صيحاتِهِمْ
في صُدوعِ الحَجَرْ.

باتنة، ٧/ ٥/ ١٩٨٠

الواحة

في الغروبِ السِرّيّ تسري البناياتْ، الجذوعُ التي أقامتْ سقوفاً، والزوايا التي استقامتْ شبابيك، الترابُ، الدخانُ في حَجَرِ الموقدِ، هل كانتِ البيوتُ خياماً، أم كلاماً عن الرحيلِ؟ التقتْ أشواقُ صبَارةٍ بأوراقِ كَرْمٍ، ثم ماتتْ معَ الرحيلِ الرحيلِ.

طُولقة(*)

طُولقة

أيتها المدينةُ التي تقهركِ الصحراءُ

وهندسةُ الجنسياتِ المتعددة

أيتها المشيدة

من الجِذعِ الميتِ، والجذعِ الحيّ

أيتها المهاجرةُ

صوبَ المرابينَ والحليبِ المجفّفِ

أُهاجرُ إليكِ

هجرةَ الخارجيّ إلى الباطنِ

(*) «طولقة»، واحة في جنوب شرق الجزائر.

وأقولُ: بهيةٌ أنتِ
تقفُ الريحُ عندَ «زاويةٍ» في النخلِ. . . . بُوذيةَ المناسكِ: من أَعلى ضريحاً على الوطيئةِ؟ من قال «الكتابُ الحقيقةُ»، «الأرضُ بستانٌ»؟ ومن خَطَّ بالمُذَهَّبِ والأسودِ، تاريخَكِ الجميلَ الذي ننسى؟ إذن، فلنقُلْ: سلاماً، لندخلْ في التراويحِ. . . ولْنمُتْ في الأصيلِ.
طولقة
طولقة
في «الزاويةِ» تعيشينَ
وفيكِ كانت تعيشُ «الزاوية».
من أزقتكِ المتربةِ
وعيونِ أطفالكِ
تقتلعينَ الرُّخامَ
وتفترشينَ أرضَ «الزاويةِ»
تفرشينَ تربتَها ذاتَ الشميمِ
بسكاكينِ المَقالعِ
لماذا؟
لماذا؟
ربما كنتُ ميتاً حينما جئتُكِ أمشي
على خطاي الأخيراتِ. فهلْ أنتِ
دهشتي؟ أم مَلاذي؟ أم سماواتيَ
التي لم أجدْها مَرةً؟ ربما

ولكنني أخطو خفيفاً على مِهادٍ
من الأعشابِ والسعفِ والتحولِ،
فلأصمتْ قليلاً عن احتضاري الطويلِ.

باتنة، ٦/ ٥/ ١٩٨٠

لقلق نيسان

هكذا جاءَ. . .
بلا طبلٍ، ولا فرقةِ موسيقى
أتاها، هادئاً، منهمكاً
في اللحظةِ الأولى: اختيارُ الدارِ
في الثانيةِ: العودُ الذي سوفَ يكونُ العشَّ
في الثالثةِ: العشُّ. . .
ولكنّ المدينةْ
لم تزلْ في القاعِ. . .
لم تعرفْ لماذا جاءَ
لن تعرفَ ما يفعلُ
لن تدري به حينَ يناديهِ الرحيل.

باتنة، ٣/ ٥/ ١٩٨٠

أوهامُ الأخضر بن يوسف

١ ـ الحانة

هي حانتهُ ١٠٠٪
وهو يعرفُها: بابُها الخشبيُّ الصغير
والزجاجُ الملوّنُ
والبارُ عندَ اليسار
والزقاقُ المؤدِّي. . .
. . . .
. . . .
. . . .
وهي حانتهُ
ربما دارَ في غيرها
واصطفى عُصبةً غيرَ روّادِها
أو سُقاةً
ومائدةً
في بلادٍ سواها
ربما. . .
غير أنّ الزجاجَ الملونَ
والبارَ عند اليسار

والزقاقَ المؤديَ
والبابَ. . .
كانت حصيلتَهُ، والوسادَ الذي ظَلَّ يرجوهُ
والملجأَ الفردَ
لو كان عُمُركَ أرحمَ. . .
لو قسوةُ الصخرِ كانت أقلَّ. . .
ولكنْ، لماذا تُحاكمُ ما أحكمتْهُ الهواجسُ؟
ها هو ذا البابُ
فادخلْ
ترَ الكأسَ ممتثلاً، ماثلاً
والسقاةَ حميمينَ. . .
وادخلْ
تجدْ عصبةَ العمرِ
وادخلْ. . .
. . . .
. . . .
فيا وحشةَ العمرِ
يا وهمَهُ
يا لَهذا الطريقِ الذي لا يؤدِّي. . .
ويا بابَ حانتِهِ الخشبيَّ المسمّرَ
والورقَ الفظَّ فوقَ الزجاج
. . . .

. . . .

. . . .

رذاذٌ،

وخطوتُه تتثاقلْ

شيئاً فشيئاً

ويمضي، كما جاءَ

مستسلماً للرذاذ.

باتنة، ٢٤/ ٣/ ١٩٨٠

٢ ـ القرية

أمسِ، انتحى بشهادةِ الميلادِ، زاويةً
وقلَّبَ، وهو يلهثُ، ما تجيءُ به الخطوطُ:
العمرَ
والسنواتِ
والوجهَ الصبيَّ
وثَمَّ قريتهُ. . .
أحسَّ الأرضَ تحتَ خُطاهُ ثابتةً
وأنَّ الماءَ يجري
أنَّ ذاكَ الجسرَ لم يزلِ الصغيرَ
وبغتةً. . .
مسَّته أغنيةُ الطفولةِ
هل يقولُ الأخضرُ المترددُ الكلماتِ شيئاً؟
والخُطى؟
هل يتركُ القدمينِ تتجهانِ أنّى شاءتا؟
. . . .
. . . .
. . . .

في البُعدِ قريتهُ
وفيها الجسرُ
والدُّفلى
وأغنيةُ الطفولةِ
والطريقُ إلى يديه.
. . . .
. . . .
. . . .
كانت حقيبتُه الوحيدةُ نزرةً:
خمراً
وأوراقاً
ومبذلةً مخططةً
وأغنيةً لأغنيةِ الطفولة.
. . . .
. . . .
. . . .
لم يعرفِ البيتَ القديمَ
ولا رأى المقهى
ولم يرَ في البعيدِ شُجيرةَ الدُّفلى
وكان الناسُ، عندَ الجسرِ، مسمولي العيون.

باتنة، ٢٥/ ٣/ ١٩٨٠

٣ ـ الرايات

وجدتُ في زاويةِ الدكانِ، ظُهراً، حزمةَ الرايات
ـ ألم تكنْ مسندةً يوماً إلى الحائطِ
والحائطُ رطبٌ؟
قلتُ: ما دمتُ هنا، في غفلةٍ من صاحبِ الدكانِ
فلأخرجْ بها للشمسِ
ولتخفقْ قليلاً
ربما يسقطُ هذا العَفَنُ الناشبُ في أعوادها
أو ربما تنشفُ في الشمسِ
وقد يُبصرها العابرُ
والعاثرُ. . .
قد أختارُ منها رايةً أحملُها
حين أرى اللونَ بهياً خافقاً في الريحِ
وامتدّتْ يدي. . .
لكنني ما كدتُ في تَلهفي أُمسكُها
حتى تهاوتْ بين كفيَّ
تراباً
خانقاً

أخرجَني من غفلةِ الدكانِ
والزاويةِ الرطبةِ
والراياتِ
والبابِ الصدئ.

باتنة، ٢٥/ ٣/ ١٩٨٠

٤ ـ الزيارة

حين زارَ العراقَ اكتفى بالزيارةِ
قالوا: هو الأخضرُ المتكبرُ. . .
قالوا له: «كم تضوّعَ بعضٌ بهذي البلادِ
وكم ضاعَ بعضٌ،
وأنتَ بها المتفرجُ. . .
ما ضُعتَ يوماً
وما ضِعتَ. . .»
قالَ:
«البلادُ لأصحابها
لا البلادُ بلادي
ولا أهلُها الأهلُ
والماءُ ليسَ السماء».

باتنة، ٢٦/ ٣/ ١٩٨٠

٥ ـ الشعر

من هشَّمَ هذي المرآةَ
ونثَّرها
كِسَراً
كِسَراً
بين الأغصان؟
والآنَ. . .
أندعو الأخضرَ كي ينظرَ؟
تضطربُ الألوانُ
وتختلطُ الصورةُ بالشيءِ
وتحترقُ العينان
لكنّ على الأخضرِ أن يجمعَ تلكَ المرآةَ
على راحتهِ
ويلائمَ بين الأجزاء
كما شاء
ويحفظَ ذاكرةَ الأغصان.

باتنة، ٢٦/ ٣/ ١٩٨٠

٦ ـ النعاس

ما الذي جاءَ بي؟
كيف ألقيتُ نفسي بهذي البلاد. . .
دائراً في شوارعِها
ذاهلاً في الحدائقِ
مستسلماً للنعاسْ. . .
ما الذي جاء بي؟
إن أهلي بعيدونَ
لا يعرفونَ
فإن عرفوا. . . هل تراهم يمدّون لي الحبلَ؟
قد يَصعبُ الأمرُ:
غادرتُهم في الطفولةِ،
والناسُ يَنسون. . .
حتى أنا لستُ أذكرُ أهلي.
ولكنّ هذا النعاسَ المعتّقَ إن طالَ يقتلُني،
كيف أنجو إذن؟
إنني، في الأقل، أُحسُّ بهذا النعاس. . .

باتنة، ٢٦/ ٣/ ١٩٨٠

٧ ـ النهر

ألقيتُ نفسي عند شاطئهِ
وقلتُ: ألا أباعدُ هذه الأغصانَ عن عيني
فأبصرَ في المياه؟
وجلستُ. . .
لكنْ، كلما باعدتُ غصناً جاء غصنٌ،
كيف أخترقُ المياه؟
وكيف أنفذُ في دروبِ القاعِ؟
غطَّتني الغصونُ
فنمتُ:
كان الماءُ يمسحُ هدبي المرخى
ويفتحُ لي مدائنهُ
وكنتُ إذا دخلتُ مدينةً غرقتْ
وأبقتْ لي البصيرةَ،
ليتها أبقتْ لها، ولي، البصيرةَ والحياة!

باتنة، ٣/ ٤/ ١٩٨٠

باتنة(*)

جبالٌ، كمكةَ، جرداءُ
وادٍ، كمكةَ، لا زرعَ فيهْ
وأنتَ الهِلاليُّ ـ
أفقرُ من ذرّة الرملِ
بدّلتَ تيهاً بتيهْ.

باتنة، ٢٣/ ٣/ ١٩٨٠

(*) باتنة: مدينة في الشرق الجزائري كانت أحد مستقرات الهلاليين في التغريبة.

خراسان... خراسان[1]

خراسان تَرهُفُ في البُعدِ
بيضاءَ
بيضاءَ
شفافةً
وحريريةً. . .
ربما تستدير تفاصيلُها في غبارِ الطريقِ إلى «مشهدٍ»
أو بساتينِ «شيرازَ»
ربتما نستعيدُ كتابَ «الفِتَن»
و«المقَاتلِ»
أو قائلَ البيت يوماً:
أرى تحت الرماد وميضَ نار
ويوشكُ أن يكونَ لها ضِرامُ[2]
ولكننا منذ قرنٍ وقرنينِ أو عشرةٍ
قد فقدْنا تهاويلَها

(١) «خراسان، خراسان» صيحة لياسر عرفات.
(٢) هو نصر بن سيّار أمير خراسان الأموي زمن مروان بن محمد.

واكتفينا بزرقةِ مئذنةٍ
وشعاعٍ غريبٍ يراه المصلّونَ
في مسجدِ «الشاهِ عبّاسٍ»
القبةُ الأمُ فيروزةٌ أصفهانيةٌ،
والريقُ بـ «قُمّ» صفيحٌ وحلوى
و«مُتعةُ» مستطرِقٍ
أو فقير. . .
خراسانُ تنبضُ في القلبِ
بيضاءَ
سوداءَ
هفهافةً
وحريريةً. . .

نحن لم نكترثُ للدعاةِ يهيمون في الغَسقِ الفارسيّ
ولم نكترثْ للقرى العربيةِ
ولم نكترثُ للنشيجِ الذي يصلُ اللَّهَ بالأرضِ
لم نكترثْ للنسيجِ المدمّى
وكانتْ خراسانُ تولدُ
كانت خراسانُ توجدُ
سِرّيةً
وسرايا. . .

وكانت خراسان تلتزُّ ـ في الكفِّ
خضراءَ
سوداءَ
صفصافةً
وحديديةً . . .

يا بلادي التي لم تجدْ وجهَها بعدُ
لم تقرأ القصبَ الفارسيَّ
ولم تضطربْ في السماواتِ
يا قريةً للذهولِ
ويا قامةً للذبولِ المباغِتِ،
ها هي ذي صبوةُ الأرضِ:
جاءت خراسانُ تخفقُ في الرمحِ
حمراءَ
سوداءَ
عصَّافةً
وحديديةً . . .
من ممراتِ «خيبرَ» حتى صخورِ المحيط .

باتنة، ٢٣/ ٣/ ١٩٨٠

علي الجندي

قد تضيق العبارةُ
لكن قهوتَهُ في الضحى المشرئبِّ
افتتاحٌ
وفتحٌ،
وقد يستقي النارَ من قِطعِ الثلجِ في الكأسِ
أو يرتقي السحبَ البيضَ من تبغٍ أسودٍ
قد ينامُ. . . ولكنْ مع الفجرِ
معتنقاً حُلماً للفتوةِ،
قد يُقذعُ القولَ
لكن كفيهِ غصنانِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
هذا الأميرُ الدمشقيُّ
من رابَهُ؟
من تسوَّرَ أهدابَهُ
وتَصَوّرَهُ،
كي تضيق العبارة؟

باتنة، ٢٢/ ٣/ ١٩٨٠

ربيع ١٩٨٠

في أنباءِ العَدْوِ الريفيِّ
وفي صيدا المحترقةْ
تأتي
فبأيّ النبتِ تجيء؟
وبأيّ بذورٍ نملأ صينيتَنا؟
وبأيّ نذورٍ نأتي؟
أيَّ جرارٍ نُحضرُ؟
أيَّ جِرارٍ نكسرُ؟
أيَّ أمانٍ نتمنى؟
ولمن نستأني؟
وبمن نتغنى؟
وبأي بلاد. . .

باتنة، ٢١/ ٣/ ١٩٨٠

العصافير

لأنكِ أنتِ الطيورُ الوحيدةُ
في هذه البلدةِ المقفرةْ.
لأنكِ لا تسكنينَ لغيرِ الشجرْ
ولأنّ الشجرْ
ليس يُؤويه في هذهِ البلدةِ المقفرةْ
غيرُ عينيّ والمقبرةْ
صرتِ في المقبرةْ.

باتنة، ٢١/ ٣/ ١٩٨٠

ألف باء

«١»

يطلّ القاتلُ
عبرَ غلافِ مجلتهِ الأولى
وجهاً مقتولاً.

«٢»

في الصفحاتِ يدور «الفارسُ»
سيفاً من خشبٍ
بين سيوفٍ من خشبٍ
وحصاناً مخبولاً.

«٣»

بين القصرِ وبين القبرِ
خُطى،
لكنّ الخطوةَ
هذي اللحظةَ
قد تبلغُ ميلاً.

« ٤ »

للصقرِ المحتضرِ
الوحدةُ
والمجدُ
وهذا الأفقُ المفتوحْ
لكن الذئبَ يموتْ
ملعوناً
منتَهشاً
دمويَّ الروحْ.

باتنة، ١٩/ ٣/ ١٩٨٠

الجزائر

في المقهى
رائحةُ الصوفِ، وشمسٌ غاربةٌ
والساعةُ
ثابتةٌ عند الثالثةِ. . .
القهوةُ باردةٌ.
يدخلُ شرطيٌّ في المقهى
يجلسُ في زاويةٍ،
ينظرُ نحوَ الساعةِ، جِدِّياً
ويعدّلُ ساعتَهُ. . .
يأتيهِ النادلُ بالقهوةِ ساخنةً،
يشربُها
ويغادرُ.
أنظرُ نحوَ الساعةِ في الحائطِ:
هل كانتْ في الثانيةِ؟
المقهى يكتظُّ
ويمضي النادلُ نحوَ البابِ
ويغلقُ بابَ المقهى.

باتنة، ١٨/ ٣/ ١٩٨٠

سر النافذة

يطلّ من نافذة الشقّةِ
من نافذتي، طفلٌ. . .
تُرى. . . من جاءَ بالطفلِ هنا؟
كيف اهتدى في الليلِ والريحِ؟
إلى بيتي؟
ومن أدخلَهُ الغرفةَ؟
من أوقَفَهُ في هذهِ اللحظةِ،
هذي الوقفةَ اللعنةَ
عند النافذةْ؟
أريدُ أن أُبعدَه شيئاً
وأن أنظرَ نحوَ الجبلِ المثقلِ بالثلجِ
ما اعتدتُ. . .
ولكني لا أجرؤُ.
فلأستسلمِ الآنَ إلى دفءِ فراشي
أدفنُ الرأسَ ببطانيتي. . .
ولْينظرِ الطفلُ من الشباكِ
وليفعلْ كما شاءَ

فإن شاءَ تخطَّاني
وإن شاءَ أتاني
إنها غرفتهُ
والجبلُ الماثلُ، والدنيا
وسرُ النافذةْ.

باتنة، ١٧/ ٣/ ١٩٨٠

ثلج أول

يطيرُ في الشارعِ ثلجٌ أوّلٌ
تبدو على الأشجار منه النقطُ الأولى
وتحمرُّ خدودُ الفتيات.
من يسألُ الوردةَ كيف انفتحتْ؟
ينهمرُ الثلجُ
وفي الريحِ يدورُ الورقُ الشاحبُ
والثلجُ...
وتمضي، دافئاً،
تلتفُّ في معطفكَ الجلدِ
إلى أن ينتهي الشارعُ
والثلجُ...
وتحمرَّ على أوراقِكَ الأخرى خدودُ الفتيات.

باتنة، ١٧/ ٣/ ١٩٨٠

قول

كيف لا تعرفُ الخطواتُ الممرَّ الذي في الجبلْ؟
كيف لا تعرفُ الخطواتُ الجبلْ؟
كيف لا نعرفُ النجمَ؟
لو كانتِ الأرضُ بيتاً لكُنَّا سكنَّاهُ
كنا استرحنا به
وارتشفنا قليلاً من النبعِ
لكنها الأرضُ. . . مرآتُنا
ـ الأرضُ مرآةُ من لا يرى ـ
كيف ننظر فيها، ونهتفُ:
ها هي ذي الأرضُ!
. . . .
. . . .
. . . .
قال الطريدُ المطارَدُ:
حَطِّمْ مراياكَ
حَطمْ

وحَطمْ
وحَطمْ
إلى أن ترى في الشظايا.

باتنة، ١٦/ ٣/ ١٩٨٠

سؤال

أنا لا ألمس بيروتَ
كمن يذكرُ في المقهى امرأةْ.
إنيي أنشِقُ عطرَ الزنبقةْ
قبل أن أفقدَها. . .
لا طلقةَ اليومَ
ولا خمرةَ في الشرفةِ
هل قاتلتُ كي أُقتَلَ؟
مَن، يا سيدي عُقبةُ. . .
يأتيكَ بأزهارِ المراعي؟

باتنة، ٣/ ١/ ١٩٨٠

بنت

كيف تمّ التوازنُ
حتى دخلتِ القصيدةْ
مثلما تدخلُ الشجرةْ
في الجبالِ البعيدةْ؟
. . . .
. . . .
. . . .
كيف برّرتُ أن أرتضيك
في برودِ العناصرِ
أو في التعادلِ؟
يا وحشةَ النفسِ:
أن أرتضيكِ
ولا أرتديك.

باتنة، ١٨/ ١٢/ ١٩٧٩

هلاليون

للبلاد البعيدةْ
نحن نمضي. . . وأين البلادْ؟
للسماواتِ نمضي
وأين السماءْ؟
حينما نستريحْ
يأكلُ العشبُ أقدامَنا،
ثم نأوي إلى بعضنا
مغمِدينَ الصريحْ
في قصائدَ مهزوزةٍ
وانتظارِ جوادٍ جريحْ.

باتنة، ١٨/ ١٢/ ١٩٧٩

وطن

أيكون أقصى الأرض لي سكناً
والمخبرُ البدويُّ يتبعني؟
أنَّى اتجهتُ رأيتُ قامتَهُ
مغروزةً في صورة الوطنِ
زمنٌ هو الشرطيُّ، في يدهِ
أرضُ العراقِ شبيهةُ الزمنِ.

باتنة، ١٨/ ١٢/ ١٩٧٩

المعاد

تنتهي آخرُ العماراتِ بالمقبرةِ،
الآنَ قد يكونُ على الحارسِ
أن يشتري أسطوانةَ غازٍ. . .
ربما جاءت الجبالُ هنا في غفلةٍ عن عروقها،
ربما كنا سعيدينَ أن نراها ليومينِ
ولكن، من أين نأتي إليها؟
والفتاةُ، الفتاةُ، أين يراها؟
دارُها في انطفاءةِ المغربِ الأولِ
من كان عندَها؟
من رآها؟
كيف مسَّت ذراعَه شفتاها؟
يقف السروُ، ليس فيه سوى السروِ
انتهتْ آخرُ العماراتِ. . .
سورٌ
سروةٌ
عندها أسطوانةُ غازٍ
ومساءٌ يجيءُ قبلَ المساءِ.

باتنة، ١٨/ ١٢/ ١٩٧٩

مسافرون

يتركون النهارْ
دائماً خلفهم.
يتركون الصغارْ
وحدَهم.
. . . .
. . . .
أيُّ صمتٍ يسافرْ
في برانيسهم
أيُّ صمتٍ يقيمْ
هلى سيخفقُ شيءٌ قديمْ
في برانيسهم
فيرونَ النهارْ
بين أحداقهم
ويرون الصغارْ؟

الجزائر العاصمة، ٢٣/ ١١/ ١٩٧٩

القبو

أعرفُ هذا القبوَ. . .
كم عامٍ، وكم عامٍ، مضى
والقبوُ يغدو محكماً أكثرَ ممّا كانَ
أيامَ دخلتُ المرةَ الأولى.

❋

أسألُ أحياناً
عن الضوءِ الذي يدخلُ في القبوِ:
لماذا يألَفُ العينَ
ولا تألفُه العينُ. . .
تُرى. . . كان الرضا وهماً؟
وتلكَ السنواتُ الأبجدياتُ ـ
أكانتْ خطأً؟

❋

بعضُ الذين استوطنوا القبوَ
أقاموا جَنَّةً فيه،
ولكني لم أعرفْ
لماذا أجدُ الجنةَ

شيئاً خارجَ القبرِ . . .
كما أنكَ تدري
أنني حينَ دخلتُ القبرَ
ما كنتُ وحيداً،
غيرَ أنّ القبرَ ظَلَّ القبرَ
والجنةَ ظلتْ حلُمَ الجنةِ
والقبرَ الأخير

الجزائر العاصمة، ٢٣/ ١١/ ١٩٧٩

محطة

تأتي المحطاتُ في الذكرى،
أكان على أبوابها بعضُ ضوءٍ
أم ترى انطفأتْ
في هدأةِ العمرِ؟
أم أني أناديها
في لمحةٍ من شبابيكٍ وأرصفةٍ
لعلني أُوقفُ استغراقتي فيها.

❊

يا وجهَ من لا أراها حين ألمسُها
ومن أراها مع الذكرى:
لِمَ اختلفتْ
تلك الملامحُ في المابينِ
وانطفأتْ
وأبرقتْ
وكأنّ الرعدَ رائيها؟

❊

عند المحطةِ
كان الضوءُ منهمراً
وبارداً.
إنه المقهى
وفي طرفِ المقهى
أقرّبُ من كأسي لأقصيها.

الجزائر العاصمة، ٢٣/ ١١/ ١٩٧٩

صباح الخير أيها العرب

صباحَ الخيرِ، ألْفاً، أيها العربُ!
صباحَ الخيرِ للمشرقْ
صباحَ الخيرِ للمغربْ
صباحَ الخيرِ، عبدَ الناصرِ، الغلَطا
صباحَ الخيرِ، يا أَمةً، تعرّتُ أُمّةً وسَطا.
صباحَ الخيرِ، ألفاً، أيها العربُ
صباحَ الخيرِ للأولادْ
صباحَ الخير للجلادْ
صباح الخير للثوراتِ تنقلبُ
صباح الخير للطلقاتِ مكتومةْ
صباح الخير للراياتْ
صباح الخير، عشراً، للوحولِ تُلطخُ الراياتْ
صباح الخير للشعراءْ
صباح الخير للرقباءْ
صباح الخير للسفراءِ أميينَ مثلَ نبينا
ولهم صباحُ الخيرِ حين يخططونَ القتلَ والشهداء

للشركات حاكمةً: صباحُ الخير
للأحزابِ إذ تُرشَى: صباحُ الخير
للدولارِ قومياً: صباحُ الخيرِ
للقدسُ التي صلّى بها الجربُ
صباحُ الخير...
صباح الخير، تُفْ... تُفْ... أيها العربُ!

الجزائر العاصمة، ٢٣/ ١١/ ١٩٧٩

منفيون

أجملُ ما في فكرةِ المنفى
أن يُصبحَ المنفيُّ سلطانا
«يُنظِّمُ» العُملةَ
والسائحاتْ،
ويُلبس الثورةَ قفطانا.

الجزائر العاصمة، ٢١/٨/١٩٧٩

رمضان

ليس سوى الغروبِ والأشجارْ
في هذه الساحةْ.
يمرقُ طيرٌ، يحملُ اللحظةَ، نحوَ البحرِ
مذعوراً.
وتبقى هذه الساحةْ
خاليةً، إلا من الأسفلتِ والأشجارْ
هل دقّتِ الساعةْ؟
. . . .
. . . .
. . . .
بعد قليلٍ تخرجُ الأحجارْ
وتملأُ الساحةْ.

الجزائر العاصمة، ١٧/٨/١٩٧٩

مراجعة

«مقهى على البحرِ»،
ولكنك لا تمضي
إلا مع الضحراء
. . . .
. . . .
. . . .
ما هكذا تَستبقُ الأشياء!

الجزائر العاصمة، ١٧/٨/١٩٧٩

مريم ابنتي

تكنزُ آلافَ المرايا
دونَ أن يُرهقَها إدراكُ ما فيها
لكنني اليومَ أرى مريمَ
في الساحاتْ
زائغةً،
تخمشُ في مرآتها وجهَ نبيٍّ ماتْ.

الجزائر العاصمة، ١٧/ ٨/ ١٩٧٩

توعك

يعرف أن ابنَ زُريقٍ. . .
آهِ للحُمَّى
والبردِ،
والجوعِ الذي كابرتَ أن يُسْمى.
قد ترحلُ الليلةَ. . .
لكن قضاءَ اللّه
ضاقَ
وضاقت معه حتى عروقُ الآه.

الجزائر العاصمة، ١٧/٨/١٩٧٩

مطر أول

في شُرفة الفندقِ
حيثُ امتدْتِ القضبانُ سوداءَ
رأيتُ القطرةَ الأولى
كانت على أرضيةِ الزُلِّيج
وحيدةً
تذبلُ كالزهرةِ في آبَ، على الزُلِّيج.

*

أيتها البنتُ التي تهجِسُ في بغدادْ
صمتي... ولا تأتي
وفي غرفتها تستقطرُ الأبعادْ
لا تفتحي الشرفةَ
إن القطرةَ الأولى
قد يبِستْ
والمطرَ الأولَ أرخى الهدْبَ مبلولاً.

الجزائر العاصمة، ١٧/٨/١٩٧٩

MADONNA

في أعشابِ البحرِ.
وفي أكواخ الصيادينْ
في أرض اللَّه المحروقةِ
في وجه امرأةٍ أعرفُها
في الهجرة نحوَ الهجرةِ
في شجرات التينْ:
مادونا
مادونا
مادونا

*

هَلِّلوا يا...
هللوا يا...
هللوا يا...
هللوا، يا أيها الآتونَ من كلِ القرى،
يا أيها الآتون من كلِ المتاريسِ، ومن كلِ الحواجزَ.
هَلِّلي، يا امرأةً موصوفةً بالكُحلِ والبحرِ،
وهللْ أيها الطفلُ الذي يحملُ رسماً عربياً

في جناحَيهِ. ويا أيتها البنتُ التي صادفتُها
أمسِ بلا أهلٍ. . .
لماذا لا نرى الوجهَ
الذي نرسمهُ في هداةِ الليل، وفي إطراقةِ الفجرِ،
وفي الصُّحبة، والقُبلةِ، والذكرى؟
لماذا لا نرى الوجهَ الذي لم نتعلمْ أن
نحبَّ الوجهَ لولاه؟
لماذا لا نرى بيروتَ، في الهدأةِ، مادونا؟

❊

مادونا
مادونا
مادونا
في رملِ المتراسْ
في لفتاتِ الناسْ
في الرشّاشِ الصامتِ
في ثقةِ الحراسْ
في الزهرة تلتفُّ على الحبِ الأولِ
في لغةِ الأنفاسْ.

❊

هللوا يا. . .
هللوا يا. . .
هللوا يا. . .

هللوا، ولْنرسُمِ الليلةَ، مادونا، على ضوءِ
الصواريخِ
لنرسمْ هذه الليلةَ، مادونا، على ضوءِ القناديل،
لنرسمُ هذه الليلةَ، مادونا، على وجهِ النجوم:
الوجهُ يأتينا كما لم يأتنا وجهٌ عرفناهُ...
وتأتي المقلتان
في سوادِ الأملِ الغائبِ
تأتي الشفتان
وردةً ناصعةً ضائعةً في الحلم...
مادونا!
وتمضينَ بعيدةْ.

*

هللوا يا...
هللوا يا...
هللوا يا...

بيروت، ١٠/٦/١٩٧٩

الأعداء

قصيدة في ثلاث حركات

١ ـ الطفولة

في ورد الهيلِ، وفي البرديّ، وفي التّمرِ المتساقطِ،
نمضي.
يا قطراتٍ بين الجبهةِ والفم. . .
رائحةٌ يسكنها الخنزيرُ الوحشيُّ
سَتَعْلَقُ بالأثواب.
بنادقُ أهلينا يدويات الصنعِ.
بأيدينا سَعَفٌ،
والخنزيرُ الوحشيُّ يعومُ على غيمٍ أخضرَ.
خبزُ الصبح تعلَّقَ بالأظفارِ،
عيونُ يتامانا تبحثُ في وردِ الهيلِ
وفي البرديّ
وفي البلهارزيا
عن أخشابٍ تلقيها سفنٌ عابرةٌ.
تبحثُ عن سفنٍ عابرةٍ عن معنى البحرِ،
يُلَوّحُ بحّارٌ. . .
نرفعُ أثوابَ الطينِ:
«سلاماً يا ربَّ الخشبِ المُلقى

يا ربَّ العُلَبِ الطافيةِ».
النورسُ ينقضُّ على مزبلةٍ في الماءِ.
الخنزيرُ الوحشيُّ يُخشخشُ في الصدرِ المبتلِ.
وبقعةُ ماءٍ تحمرُّ...
نبولُ دماً،
نضحكُ.
والخنزيرُ الوحشيُّ يخشخشُ في البرديّ.
أنادي الشاطئَ:
خالةُ، يا خالةُ، يا خالةُ...
أين بنادقُ أهلينا اليدوياتُ الصنعِ؟
الخنزيرُ الوحشيُّ يخشخشُ في الطينِ.
يتامى كنَّا،
نبحثُ عن معنى البحرِ.
تلمّسْنا الأشياءَ ولم نتعلمْ.
وتلمَّسنا الأسماءَ ولم نتكلمْ.
هذا السعفُ الأخضرُ، مجروداً، أسلحةُ الأطفالِ
ورائحةُ الخبزِ
وسقفُ التعريشةِ في الشاطئِ
(خالةُ، يا خالة، يا خالةُ)
هذا السعفُ الأخضرُ
والخنزيرُ الوحشيّ يعومُ على غيمٍ أخضرَ،
تبدو قطعةُ ماءٍ أحمرَ

بين البرديّ وأقدامِ الأطفالِ.
إلهُ البحرِ يغيبُ.
وآخرُ موجاتِ سفينتهِ تحملُنا
بين الخشبِ الطافي، والعلبِ الملقاةِ.
الرأسُ يدورُ
الرأسُ المحترقُ الشعرِ
المحترقُ العينينِ،
الشمسُ تدورُ. . .
الشمسُ البحريةُ تهبطُ في الرأسِ الدائخِ تحتَ الماءِ،
الخنزيرُ الوحشيّ يغادرُ مكمنَهُ في الغيمِ الأخضرِ
يتبع قرصَ الشمسِ الدائخَ تحتَ الماءِ. . .
الخنزيرُ الوحشيّ يخشخشُ
بين الخشبِ الطافي والعلبِ الملقاةِ،
عيونُ يتامانا تتعلَّقُ بالخبزِ إلى الشاطئِ،
والرأسُ الدائخُ تحت الماءِ. . .
الخنزيرُ الوحشيُّ يُراوغُ تحتَ الماءِ الأحمرِ
(خالةُ، يا خالةُ، يا خالة).

٢ ـ التمرد

طائرة تُسقِطُ سَلوى من ورقٍ،
مَنّاً من كلماتٍ لا نفقهُها
نتخاطفُها مسرورينَ ومرتجفينَ،
بلادٌ ننسى كيف نُسميها. . .
نعرف أن ع.ر.ا.ق حروفٌ نتهجّاها
أين نراهُ؟
وهل يدخلُ يوماً من بابِ الكوخِ السعفيّ؟
تراه سيحملُ برنيَّتَهُ ملأى بمخيضِ الصبحِ؟
بزُبدٍ أبيضَ؟
طائرة تُسقطُ سلوى من ورقٍ
وتدورُ على النخلِ
معلِّقةً كلماتٍ لا نفقهُها. . .
عبدُ الحسن بن مبارك جمَّعَ عشرةَ آنيةٍ
للسّلوى والمَنِّ،
وعبدُ الحسن بن مبارك قال لنا:
«الليلةَ نأكلُ».
طائرةُ السلوى تمرقُ عبرَ أعالي النخلِ

كخنزيرٍ أسودَ. . .
نحن الفتيانَ الفقراءَ
ونحن الماشينَ على أرض ع.ر.ا.ق نجهلهُ،
الليلةَ نأكلُ. . .
عبدُ الحسن بن مبارك يأخذُنا للشطِ جميعاً،
عشرةُ آنيةٍ في الجيب الأيسرِ.
طائرةٌ كالخنزير الأسودِ
دارتْ فوقَ النخلِ،
وعبدُ الحسن بن مبارك إذ يتقدمنا عُريانَ إلى الماءِ،
يصيحُ بنا:
«الليلة نأكلُ فَلْتتشبوا». . .
كان الماءُ يفيضُ
وكان المدُّ الأحمرُ أسماكاً.
طائرةٌ
كالكوسج
دارت فوق الماءِ،
وعبدُ الحسن بن مبارك، عرياناً، يتقدمُنا في الماءِ. . .
«الليلةَ نأكلُ».
كنا نحملُ آنية السلوى،
والمدُّ الأحمرُ يحملُ أسماكاً نتشهاها
والصيادون على الضفةِ الأخرى،

والطائرةُ الكوسجُ تمرقُ عبرَ الشطِّ.
هبطْنا في الماءِ الدافئِ
عريانينَ
وحيدينَ
وكنا نحملُ آنيةَ السلوى،
الكلماتِ اللائي لا نفقهُها،
وع.ر.ا.ق ابنِ مبارك...
كانت أجسادُ السمكِ البالغِ ناعمةً فوقَ حراشِفنا.
عبدُ الحسن بن مبارك يصرخُ:
ك.و.س.ج
ك.و.س.ج
كوسجُ
كوسجُ...
كان الذنَبُ الأسودُ مرتفعاً كالبلطةِ فوقَ الماءِ،
وطائرةٌ كالخزيرِ الوحشيِّ
وكالكوسجِ
تمرقُ فوقَ الماءِ.
صرخْنا نحن الفتيانَ الفقراءَ
صرخنا نحن الماشين على ماء ع.ر.ا.قٍ نجهلهُ...
وهُرعنا نحن الفتيانَ الفقراءَ إلى الشاطئِ...
كان الذنَبُ الأسودُ كالبلطةِ مائلةً فوق الماءِ،

ويصرخُ عبدُ الحسن بن مبارك منتهَشَ اللحمِ. . .
الماءُ الأحمرُ يحمرُّ ويحمرُّ،
وعبدُ الحسن بن مبارك يهبطُ نحو الأشَناتِ،
وكان الكوسجُ مندفعاً نحوَ الماءِ الأبيضِ. . .
طائرةٌ تمرقُ عبر ع.ر.ا.ق نجهلهُ. . .

٣ ـ أيام ١٩٦٣

أرقدُ في «السيبةِ».
كان الشرطيُّ وديعاً عبرَ القضبانِ
مريضاً كان
بعيداً مثلي
وغريباً كان.
الفتيانُ الفقراءُ يطوفونَ منازلَ في الصحراءِ،
منازلَ في المدنِ المقهورةِ،
كانوا في عرباتِ الشحنِ تؤرجحهم
مغلولينَ اثنينِ اثنينِ...
وكان «الخنزيرُ ـ الطائرةُ ـ الكوسجُ» يرقبهم.
أيّ ع.ر.ا.ق ينهضُ في السيبةِ؟
والبارحةَ امتلأ «الموقفُ»،
ظلَّ الفتيانُ يغنّون إلى أن صرخَ الخنزيرُ الوحشيُّ،
الخنزيرُ الوحشيُّ يخشخشُ عبرَ القضبانِ،
الخنزيرُ الوحشيُّ له نابانِ من الفولاذِ.
من الزاويةِ اليمنى يأتي النهرُ.
قديماً جاءَ هنا رجلٌ يبحث عن نبتِ الربّ.

قديماً كان الماءُ المسمومُ سبيلَ المشتاقينَ،
العشاقُ اختبأوا في الحلْفاءِ.
من الضفةِ الأخرى تتعالى أبخرةُ الزيتِ
وراءَ النخلِ.
لناقلةِ البترولِ الكوسجِ رائحةُ الخنزيرِ الوحشيّ،
بريقُ الطائرةِ السوداءِ.
نغنّي في الموقفِ.
أين فتاةُ الحانةِ؟
في بارٍ تحتَ البطّانيةِ يرتاحُ مهربُ أسلحةٍ.
عمالٌ إيرانيون ينامون الليلةَ في الساحةِ.
في منتصفِ الليلِ تجيء القريةُ
حاملةً سعفاً مشتعلاً
وقرابينَ من الخبزِ
نذوراً من تمرٍ.
عمالٌ إيرانيون ينامون الليلةَ في الساحةِ.
في الضفةِ الأخرى أبخرةُ الزيت. . .
وراءَ النخلِ معابدُ زارا.
في الساحةِ عمالٌ إيرانيونَ.
زيارتُه مُنعتْ.
زوجتُه ستلفُّ عباءتَها.
تحملُ أوراقَ استرحامٍ.
زوجتُه تجلسُ في ركنٍ، باسمةَ العينين،

يحاولُ أن ينظرَ في عينيها.
رشّاشٌ في سطحِ الموقفِ كان يراقبهُ.
أين فتاةُ الحانةِ؟

. . . .

. . . .

أرقدُ في «السيبةِ».
كان الخنزيرُ الوحشيُّ على سطحِ «الموقفِ».
والفتيانُ الفقراءُ يطوفون منازلَ في المدنِ المقهورةِ،
كانوا في عرباتِ الشحنِ
تؤرجحهم
مغلولينَ اثنينِ اثنين.

بغداد، ١٩٧٧

تقاسيم

«١»

في السماءِ النديةْ
تمطرُ الشجرةْ
وحدَها.

«٢»

في السماءِ البعيدةْ
يولدُ النجمُ
وحدَه.

«٣»

في البلادِ التي لن أراها
تولد الأغنيةْ
وحدَها.

«٤»

قال لي: أنتَ غصنٌ

ولكنه
لم يقلْ أيُّ ريح
ولا قال أيُّ الشجرْ. . .

«٥»

أين منبتُ ذاك الشجر؟

«٦»

كيف لي أن أرى
بينما يفقدُ اللونُ لسعَ الأصابع؟

«٧»

كيف لي أن أقول
والمرايا نوافذُ
في مركباتِ قطارٍ سريع. .

«٨»

كيف لي أن أقولَ الحقيقةْ؟

باتنة، ١٢/٦/١٩٨٠

يوميات الجنوب
يوميات الجنون

(١٩٨١)

هذه المجموعة

سبع وعشرون قصيدة، من قصائد هذه المجموعة التسع والثلاثين كتبت في اليمن، وثمت قصيدة أخرى هي «الأحفاد» كتبتها وأنا أحاول خلق أجواء يمانية، من حضرموت، تحديداً قبل أن أرى اليمن.

القصائد السبع والعشرون تنفست هواء زيارة لي، استمرت شهراً في عدن، بدعوة من الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني، الرفيق علي ناصر محمد.

وهذه المجموعة مهداة إلى شعب جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وإلى كل الأخوة اليمانيين الذين محضوني ودهم الحميم وألفة اللغة الواحدة. . . عن عنفوان الحياة والثورة، عن عراقة التاريخ، وتجسيد المثل، عن الصخر البركاني والبحر والطير والبشر، أردت أن أقول شيئاً أرده إلى هله.

س. ي.

منظر ١

مذهلةٌ جبالُ عدن
لا تلوِّنُ البحرَ ولا تتلونُ به
كأنها ملقاةٌ هنا، دون أن تدري لماذا.
منذ ملايين السنين وهي هنا
تجاورُ البحرَ ولا تحاورُه.
فقد الغيمُ النادرُ يمنحُها زرقةً رمادية
زرقةً تتحولُ إلى تنويعٍ على حجرِ البراكين.

عدن، ٣١/ ١/ ١٩٨١

منظر ٢

الشِّباكُ منشورةٌ تتجفف
وصيادُ السمكِ بين آلافِ مشاغلهِ الصغيرة
والزورقُ مستقرٌ على الرملِ اليابس.
النوارسُ خيطٌ أبيضُ على الماء
والغربانُ خيطٌ أسودُ على الشاطئ.
وعلى الزورقِ ينقرُ غرابٌ، ويحطّ نورس
بينما تتقد أجسادٌ سلافيةٌ عارية
مترنحةً بين الرملِ والبحرِ.

عدن، ٣١/ ١/ ١٩٨١

رائحة

هذه الرائحةُ
في صندلٍ ودهنِ وردٍ
وخصلاتِ فتاةٍ هندية
ومشمومٍ،
كيف تسللتْ مع الموسيقى العاليةِ لطائرة «أَلْيَمْدا»؟
هل دخلتْ مع العمالِ المهاجرين
أم أنها قادمةٌ من المطار
حيثُ البحرُ البعيد؟

الكويت، ٣٠/ ١/ ٨١

فتاة

الفتاةُ التي هُرعتْ إليّ. . .
عبرَ حديقتها الصغيرة
الملفقةِ من شُجيراتِ الخروعِ ووردِ الهيلِ،
هذه الفتاةُ التي لم أرها
ولم ترني يوماً ـ
أيَّ تفاصيلَ تكنزُ عيناها؟
وأيُّ طريقِ آلامٍ سلكتْهُ
حتى جاءتْ راكضةً هنا،
عبرَ حديقتها الصغيرة؟
عراقيةٌ أيضاً،
والعراقُ يتراكضُ: في السماءِ حسبُ. . .

عدن، ٣١/ ١/ ١٩٨١

أصداف

قالت لها سهام: أريد قواقعَ وأصدافاً.
قالت مريمُ: سواراً من الأصداف.
وقالت شيراز: قلادة...
أما أنا...
فكيف لي أن أجدَ اللؤلؤَ
كيف أجمعُ الأصداف؟

عدن، ٣١/ ١/ ١٩٨١

صيف

صيفٌ أفريقيٌّ على الشاطئ
صيفٌ وهرانيّ. . .
لو غامتْ فقط ذاكرةُ الخضرةِ
لرأيتُ جبالَ خليجِ عدن كالمرسى الكبير.
الأطفالُ يسبحون
والنسوةُ السلافياتُ
وأنتَ في بُرنسِكَ الصوفِ. . .
أتريدُ أن تتدفأَ لشتاءٍ صنعتَهُ أنتَ؟

عدن، ٣١/ ١/ ١٩٨١

قات

إذن. . . لا بد من التجريب.
ولطالما جربتَ القليلَ لتعرفَ الكثيرَ
والطالما جربتَ الكثيرَ لتعرفَ القليلَ.
وأنتَ في اليمن
لن تكونَ يمانياً، إن لم تَذُق النبتةَ الخضراءَ. . .
فليكنْ تعميدُكَ.
لكنّ النبتةَ الخضراءَ كانت في تلك الليلةِ
ممرَّكَ إلى الفودكا
ممركَ إلى الشِّعرِ وحضرموت.

عدن، ١/ ٢/ ١٩٨١

اختيار

البيكاجي كومبرادورٌ هنديّ.
جاء إلى عدن بغرابينِ زوجينِ
ومبنى ذي طابقين.
حدثَ هذا منذُ قرنٍ. . .
المبنى ما يزال مبنى
والغراباِنِ صارا مليوني غرابٍ.

*

لِمَ أختارَ هذا الكومبرادورُ
من بينِ كلِ طيورِ الهندِ
وماليزيا
وشرقِ أفريقيا،
غُرابيهِ الأسحمين؟

عدن، ١/ ٢/ ١٩٨١

غيم

غيومٌ بيضٌ على الجبالِ.
غيومٌ غيرُ دانيةٍ.
وريحٌ رطبةٌ تتحركُ بين وردِ الهيل.
سفينة تبتعدُ في طرفِ الخليجِ.
كم أحبُّ الآن أن يهطلَ المطرُ
أن يهبطَ الغيمُ في راحتي...
أن يغسلَ عن جبالِ عدن لونَ الرمادِ
ويمنحَها خضرةَ الجبالِ: سرواً وصنوبراً وعشباً،
ورائحةَ الغابةِ بعدَ المطر...

عدن، ١/ ٢/ ١٩٨١

عصافير

هذا الصباحَ أبصرتُ للمرة الأولى عصفوراً
كان على ساقٍ دقيقةٍ لنبتةِ ذرةٍ صفراءَ
نبتةٍ يتزينُ بها الفندقُ البحريّ.
العصفورُ ينظفُ نفسَه.
الساقُ تهتز.
عصفورٌ ثانٍ يأتي.
الساقُ تميل.
عصفورٌ ثالث.
الساقُ تسجد خاطفةً.
فجأةً، وبخطفةٍ واحدةٍ، تطيرُ العصافيرُ الثلاثةُ
مبتعدةً عن الفندقِ البحريّ. . .
وتحتَ قميصي ترتعشُ آلافُ العصافير.

الساحل الذهبي، ١/ ٢/ ١٩٨١

ارتباك

«أبو زهرة» ضاربُ الطبلِ. . .
لحيتُه الصغيرةُ ما تزالُ صغيرةً،
كأنه في بغدادَ البعيدةِ.
إنه ما يزال يرى الحياةَ، رائقةً، من فُوَّهةِ الطبلِ.
«أبو زهرة» يرتبكُ أحياناً.
يرتبكُ حتى لَيرى بغدادَ أيضاً، من فُوّهةِ الطبلِ.

١٩٨١/٢/٢

رامبو

الجبالُ الرماديةُ
أوجين كيفك يدخلُ «الساحلَ الذهبيّ»
كمن يدخلُ بيتَهُ.
ينظرُ إلى جبالِ عدن الرماديةِ:
«يومَ كانت الأرضُ شاعرةً
وجدتْ هذا اللونَ».
وقصيدتُه الجديدةُ؟
«الليلُ أقدم عهداً من المجترّات»
وماذا ترون في هذا البيتِ:
«حبةُ الذُرةِ الصغيرةُ تعكسُ القمرَ الممتلئَ»؟
هل أقولُ:
«حبةُ الذرةِ الصغيرةُ تصنعُ القمرَ الممتلئَ»؟
الكلامُ يدور مع البيرةِ الباردةِ
بينما يركضُ رامبو حافياً على الصخرِ البركانيّ.
من يعرفُ؟
هل لنا أن نتأثرَ خطى رامبو في عدن؟
كيف دخلَ. أنّى سكنَ. في أي وكالةِ تجارةٍ كان.

الكريتر. المعلا. خور مكسر. التواهي...
ومحمد عبدو، وثابت اللحجي، والسلطانة العذراء،
وأحمد بن عيسى، وعبد اللّٰه باذيب، وعلي العيدروس،
ومحمد ناصر علي، وإسماعيل عبد الفتاح، ومؤلف
«الفتن في تاريخ اليمن»..
هل يعرفون أشياء كثيرةً؟
من يستنقذُ يوماً، رامبو، من ترابِ البراكينِ المتقادمِ؟
قال كيفك: سيكون عملاً عظيماً.
لكن عينيه الخضراوين
الصغيرتين
كانتا مفعمتين بالندى.
التواهي
في هذا المبنى العتيق
مبنى وكالةٍ تجاريةٍ مندثرةٍ
بـ «التواهي»
كان يعمل رامبو.

*

ألم يتبقَّ من الأميرِ الشمسِ، هنا
غيرُ هذه اللوحةِ المتآكلةِ،
اللوحةِ التي لا تحملُ حتى اسمَهُ؟
لا تحملُ إلا مخالبَ الشمسِ؟

عدن، ٢/ ٢/ ١٩٨١

أثيوبيات

الأثيوبياتُ يرقصنَ
وفي قاعة المدرسة العليا للاشتراكية العلمية
(خور مكسر)،
يغني ماركس
على إيقاعِ طبلٍ أفريقيٍّ.

٢/ ٢/ ١٩٨١

المنارة

قبل أن يهبطَ الليلُ في البحرِ
تعطي المنارةُ فوقَ الجبلْ
كلَّ ما للمنارةْ.

. . . .

. . . .

بعد أن يهبطَ الليلُ في البحرِ
تطفئُ هذي المنارةُ فوقَ الجبلْ
كلَّ ما للمنارةْ

. . . .

. . . .

أين تذهبُ في الليلِ غربانُ هذي المدينةْ؟
أين يذهبُ في الليلِ نورُ المنارةْ؟

٣/ ٢/ ١٩٨١

زنجبيل

للفتاة الدمشقيةِ
طعمُ السكَّرِ والليمون.
أمّا هنا
فالزنجبيلُ الشراب.

عدن، ٣/ ٢/ ١٩٨١

شاطئ

سراطين
السراطينُ البحريةُ
تخرجُ، عجلى، من بيوتِ الرملِ
خفيفةً، متعددةَ الأرجلِ.
أفَرِحةٌ هي؟
أم خائفةٌ من زُمَّجِ الماءِ
الذي ينتظر عندَ الشاطئِ
بمناقيرهِ القويةِ؟

٤/ ٢/ ١٩٨١

رعب

تأملتُ حصى الشاطئِ
وجمعت من الوَدَعِ عَشراً
وضعتُها في جيبي.
وحينَ جلستُ إلى الطاولة أتأملُها
تحركتْ كلُ ودعةٍ في اتجاهٍ. .

١٩٨١/٢/٤

برزخ

على رائحةِ السمكِ
المتقطرِ من الشِّباك الصباحيةِ
تجلسُ القططُ والغربانُ والنوارسُ
وتجلسُ الكلبةُ الوحيدةُ.
لكنّ الصيادَ، وهو يُخرجُ أسماكَهُ
من عيونِ الشبكةِ
يجلسُ في البرزخِ:
بينَ البحرِ والنسوةِ المنتظراتِ.

عدن، ٤/ ٢/ ١٩٨١

صديق قديم

للمرة الأولى
أكونُ مع رئيسِ دولةٍ
حول طاولةٍ تتقدمُ إليها الأشجارُ
وكائناتُ البحرِ
ووشيجُ القطرةِ بالنبتةِ المتخمرةِ.

❋

للمرة الأولى
يكون لي صديقٌ قديمٌ
في أربعِ ساعاتٍ.

عدن، ١٢/ ٢/ ١٩٨١

نصيحة أوجين كيفك

«إن لم تجد البحر
فانظر في باطن كفك» . .

❋

كيف يكون البحر
وأنا لم أعرفْ، بعدُ، البر؟

❋

أنظرُ في باطن كفي
فأرى ظاهرَ كفّي . . .

❋

كيف يكونُ البحر؟

١٦/ ٢/ ١٩٨١

رياح

كالسكاكينِ، تحتدُّ حولي الجبال
لم تصفرُ مثلَ القطاراتِ
في الليلِ،
تصفرُ مثل القطاراتِ
في الفجرِ،
تصفرُ مثل القطاراتِ
في قارةٍ ضائعةْ. . .

١٦/ ٢/ ١٩٨١

مدن

شبام

لتنتهِ الأساورُ والسُّرُرُ
لينتهِ الخطُّ
والحجرُ.
لتنتهِ الكفُّ الصغيرةُ الموشومةُ بالوردةِ
لينتهِ صوتُ الماءِ
ولتكنْ لنا استطاعةُ الطينِ وحدَها
وهي تتكئُ على نفسها.

*

النصارى را را را

«أغنية لأطفال شبام»
عدن، ٩/ ٢/ ١٩٨١

تريم

دَمُّونُ هنا
أَقربُ من مقبرةِ البيتِ
ودمونُ بعيدةٌ
بعيدةٌ، حتى كأنّ امرأ القيسِ
لن يبلغَها أبداً.
. . . .
. . . .
. . . .
الأرضُ كلُّها مسجدٌ
فهل خلعتَ نعليكَ؟

١٩٨٢/٢/١٢

سيون

يا أحمد بن عيسى
من ارتقى غيرك
درجاتِ سَلُّمكَ المائة والخمس عشرة؟

❊

أحمد بن عيسى
علويٌّ عراقيّ
هاجرَ من البصرة، وجاورَ
ثم سكنَ قبل ألفِ عامٍ
سفحَ جبلٍ في «سيّون» اليمن.

❊

قبرُ الابنِ في الوطيئةِ
قبرُ أحمد بن عيسى في السفح
وبينهما تمتد الدرجاتُ المائة والخمس عشرة
مرهفةً
بيضاءَ
ساطعةً في المساءِ الهابطِ

على وادي حضرموت.

❋

لا غربانَ في «سيّون»
النساءُ مكبلاتٌ بالسواد.

❋

راياتٌ حمراءُ
وأولادٌ مهازيلُ يسيرون في الشارعِ الممهَّدِ بالحصى
مع الموسيقى وأغنيةِ الشبيبةِ
لكنْ منذُ قرونٍ
ظلتْ «سيّون» تطردُ عن بناتِها
أغنيةَ أولادِها

٥/ ٢/ ١٩٨١

لحج

هل يتبقّى من لَحج
غيرُ رفيقِ المدرسةِ الحزبيةِ
وأشجارِ الباباي؟

١٩٨١/٢/٦

خط مسند

أأكونُ الذي خَطَّ هذا الحجرْ؟
أتكونُ ارتساماتُه اسمي؟
وعيناهُ؟
إني أحدِّقُ في الوجهِ
أشتفُّ مرآتَه الحجريةَ. . .
ثم أسري بها
أنفضُ اللمسَ عن زهرتَي حضرموت
عن بلادِ السرابِ الذي صارَ هذا الحجرْ.

عدن، ١٦/ ٢/ ١٩٨١

محاولة

عدنٌ بين الجبالِ السودِ والبحرِ. . .
فهل نمضي بها نحوَ الفراتْ؟
أم نرى درباً لها بين أغاني البحرِ
والأرضِ المواتْ. . .
أم نغطيها بما تفترضُ الأشجارُ
أم نصبغُ بالأخضرِ أثوابَ البناتْ؟

*

عدنٌ في آخرِ الكونِ
وفي أولهِ كانت،
وفي أولهِ كانَ النباتْ. . .

٢٤/ ٢/ ١٩٨١

الليل

يهبطُ الليلُ كما لم يهبطِ الليلُ بأرضٍ
غيرِ هذي الأرضِ. . .
ليلٌ من صهاريجَ بلا ماءٍ
وغربانٍ بلا مأوى
وأَجبالٍ تراها فتياتُ الدَّورةِ الأولى
انتصاباتٍ
وفحماً
وتهاويلَ اغتصابْ.
. . . .
. . . .
. . . .
يهبطُ الليلُ كما يهبطُ في الحلمِ الغرابْ.

عدن، ٢٤/ ٢/ ١٩٨١

يمن

يا أرضَ الأصدافِ
يا أرضَ الأرضِ المنزوعةِ من أسنانِ البحر
يا أرضاً من ثوار المدنِ
يا أرضَ المدنِ المنسية
يا أرضَ الماعزِ كالغزلان
يا أرضَ طيورِ البحر
يا أرضَ الحجرِ النابتِ مثلَ الطين
يا أرضَ الطينِ الثابتِ مثلَ الحجر
يا أرضَ الصيادين. . .
. . . .
. . . .
. . . .
هل يبتدئُ التكوين؟
من يبتدئُ التكوين؟

عدن، ٢٥/ ٢/ ١٩٨١

الأحفاد

«١»

أدخلتِني في زهرةِ الرمانِ، ثم مضيتِ عني
وتركتِني بين التُّويجةِ واللقاحِ
تركتِني، أعرفتِ أني... سائرٌ في زهرةِ الرمّانِ
آلافاً من السنواتِ؟
أفتحُ في التويجِ مدينةً قرويةً
وتعاونيةَ مستريبينَ...
السماءُ قريبةٌ
وبعيدةٌ أرضي.

«٢»

من حضرموتَ، سفينةٌ خشبيةٌ حفرتْ عل الحيزومِ
حشرجةَ ابنِ ماجدٍ... استقامتْ وهي تنشقُ
في المحيطِ الفظِّ وردتَهُ الكشيفةَ للرياحِ...
سفينةٌ من حضرموتَ ينزُّ منها الماءُ والسمكُ المجففُ.
أيُّ جَدٍّ في السفينةِ كان يستخفي على حَقَويهِ

هميانٌ وأحفادٌ عراقيون؟ أيُّ فحولٍ عبرتْ به
تلكَ السواحلَ، حيث تنتظرُ النساءُ مضمخاتٍ
ضوعَ «بنتِ البحرِ»، حيثُ يَصُغْنَ في الغَبَشِ
المندّى المسكَ والحنّاءَ، أيُّ روائحَ اختلبتْهُ؟
رائحةِ القرنفلِ والثيابِ الهاشمياتِ؟
القواقعِ وهي تغدو الرملَ؟ رُزِّ الزعفرانِ
وأيةُ امرأةٍ محنَّاةِ اليدينِ، صغيرةِ القدمينِ
قد عشقتْهُ أو هجرته؟ هل يطوي يديه على خيوطٍ
من ملابسِها الخفيةِ؟ هل تُرى تركتْ على صندوقهِ
الخشبيِّ دمعتَها؟ سفينةُ حضرموتَ تئنُّ في
ليلِ الخليجِ، وبين حورياتهِ، بين الكواسجِ والنجومِ
يدور أحفادٌ عراقيون، وامرأةٌ ستخلبها الفحولةْ.

«٣»

طيرٌ غريبٌ فوق نافذتي
أناديه، فيدنو.
ويدورُ في حِجري، فألمسُه
فيغدو في يدي حَجَراً
وتسقطُ جمرةٌ مني
فينتفضُ الجناحُ.

« ٤ »

بيديهِ (كان البحرُ نصفَ محارةٍ بيضاءَ، زرقاءِ
الظلالِ، خطوطُها المتموجاتُ المستقيمةُ تخبرُ
عن زمانِ السرِّ والتكوينِ) أطفأَ نارَهُ الليليةَ،
انطفأتْ جدائلُه وفي صندوقهِ الخشبِ استردَّ
البحرُ نصفَ محارةٍ... أتُرى ستنطبقُ المحارةُ
مرةً أخرى؟ أيأتي مرةً أخرى زمانُ السرِّ
والتكوينِ؟ يلقي النجمُ نيزكَهُ، وتهبطُ
حبةٌ حتى قرارِ البحرِ... ثم الخَلْقُ؟
تخبو حضرموتُ، سفينةٌ خشبيةٌ تنأى...
وها هو وحدَهُ في النخلِ: صندوقٌ، ونصفُ
محارةٍ في كفهِ، حَقَواهُ يختضّانِ بالأحفادِ،
وامرأةٍ ستخلبُها فحولتُهُ. هنا، في هذه الأرضِ
التي سمعَ الجنادبَ فوقَها، سيُقيمُ مملكةً،
ويغرسُ نخلةً، ويُلاعبُ الأحفادَ...
تخبو حضرموتُ. سفينةٌ خشبيةٌ تنأى...
وتنغز قلبَهُ صيحاتُ «أهلِ البحرِ»:
في ليلِ العراقِ تهيمُ وحدَكَ، تعلكُ السمكَ
المجففَ. حضرموتُ بعيدةٌ، حَقَولكَ يختضّانِ.
مملكتي التي سأُقيمُ فوقَ محارةٍ: كوني مباركةً
ويا امرأتي التي سأشدُّها: كوني مباركةً.

ويا نخلاتِنا: كوني مباركةً
نسيمُ الليلِ حَرَّكَ من جدائلهِ. ورائحةُ الطحالبِ
في الهواءِ الرطبِ. أغمضَ مقلتيهِ هنيهةً.
هدأتْ جدائلُه، وغابتْ نجمةٌ.
في الشرقِ تنهضُ وردةٌ حمراءُ. ترتفعُ الخليقةُ.
بغتةً تهتاجُ فاختةٌ، ويفتحُ مقلتيه.

«٥»

قُلنا كثيراً
غيرَ أنّ الببغاءَ تظل صامتةً
وإن نطقتْ أخيراً
جُعنا كثيراً
غيرَ أنّ أكفَّنا ستظلُ متخَمةً
فقد بُسِطتْ أخيراً.

«٦»

لم يبقَ من ذكرى السواحلِ غيرُ وحشتها...
لقد نهضَ النخيلُ. النهرُ يدخلُ في الجداولِ،
والجداولُ في البيوتِ. النسوةُ المرحاتُ ينشرنَ
الغسيلَ على حبالِ القِنَّبِ. الأطفالُ يجتمعون
مدرسةً وراءَ التوتِ. مملكتي هي البستانُ
مشتركاً. هي الخبزُ الموزَّعُ في المناقيرِ.

احتمائي: أذرعُ الأحفادِ، والأرضُ التي
اكتنزتْ بشهوتها، وأخرجُ من وِثاقي.

«٧»

قد نبتني بيتاً، فَنُسجَنُ فيه
ما أبهى الحياة!

«٨»

ما الصوتُ يأتي من جذورِ النخلِ... يدعوني:
مهاجرَ حضرموتَ! رأيتُ أمسِ النهرَ مقطوعاً.
مهاجرَ حضرموتَ! سمعتُ أمسِ النسوةَ المرحاتِ
ينشرنَ الغسيلَ، ويحتضنَّ الجُندَ بينَ النهرِ والمقهى.
مهاجرَ حضرموتَ! رأيتُ دار المُلْكِ عاليةً...
مهاجرَ حضرموتَ! مررتُ بالبستان مقتَسَماً.
مهاجرَ حضرموتَ! سألتُ عن صندوقكَ الخشبيِّ،
عن نصفَي محارتهِ. وقيلَ: أضعتَهُ في النهرِ...
قلتَ لنا: أتيتُ هنا أوحِّدُ شاطئينِ.
وأبتني في النهرِ مملكةً مقدسةً. وفي الأرضِ السلامَ.
وأهتدي بالنجمِ، والشرقِ المفتَّحِ وردةً.
أيّانَ تنطبقُ المحارةُ مرةً أخرى؟
الفحولةُ لم تَعُدْ تختصُّ في حَقَويكَ.
والأحفادُ ينتظرونَ عند التوتِ حورياتِهم

في الليلِ. أسمعُ خفقَ أجنحةٍ. سلاماً للحياةِ.
لشهوةِ امرأةٍ تصوغُ المسكَ والحنّاءَ.
تلبسُ في المساءِ، الهاشميَّ، ووجهُها ثملْ
بريحِ البحرِ... من يأتي غداً؟ كانتْ مباركةً يداكَ.
وكنتَ تهجسُ نبضةَ الصَّلصالِ حين تمسُّهُ...
وتحسُّ بالأحفادِ يضطربون تحتَ يديكَ
حينَ تعانقُ امرأةً...
مهاجرَ حضرموت!

«٩»

للبحرِ. أنتَ تعودُ مرتبكاً
والعمرُ
تنشرهُ وتطويهِ
لو كنتَ تعرفُ كلَّ ما فيهِ
لمشيتَ فوق مياههِ. مَلِكاً.

«١٠»

خشبُ السفينةِ لم يَعُدْ بيديكَ كالصلصالِ.
لونُ البحرِ أكثرُ وحشةً مما ظننتَ. وهذهِ
الآفاقُ تعرفُها وتنكرها: الرياحُ تهبُّ،
والأسماكُ تسبقها؟ ووردات ابنِ ماجدٍ
الكشيفةُ هل نسيتَ نداءَها؟ كانت

تشيرُ، تشيرُ. . . والأسماكُ قبلَ الريحِ. . .
لونُ الماءِ قبلَ الريحِ. والأخشابُ تنذرُ
بالعواصفِ. طائرٌ يأتي. . . أتعرفُه؟
وأهلُ البحرِ؟ كنتَ تحسُّ في أحداقِهم يوماً
سبيلَكَ، وتهجسُ اللفتاتِ حين تشفُّ أو تقسو،
وتقرأُ في ملابسهم خطوطَ القلبِ. . .
أنتَ الآن منفردٌ بغرفتكَ الصغيرةِ،
ربما أومأتَ للأمواجِ منكسراً. . . ستبلغُ حضرموتَ،
تعودُ. . . لكنْ لستَ مثلَ النهرِ حينَ يعودُ نحوَ
المنبعِ السريّ. أنتَ الآن تبلغُ حضرموتَ
مقرَّحَ الجفنينِ، تبلغها كليلَ العينِ والرئتينِ،
تبلغُها ثقيلَ الخطوِ. . . لا امرأةٌ محناةُ اليدينِ،
صغيرةُ القدمينِ تثملُ بانتظارِكَ، لا حفيدٌ
سوف يحملُ عنكَ صندوقَ المسافرِ. . .
ما الذي عادت به سنواتُك الستونَ؟
أنتَ تقولُ: مملكةً بنيتُ، ونخلةً أنبتُّ،
وامرأةً عشقتُ. تقولُ: أحفاداً تركتُ هناكَ. . .
وهماً كانتِ السنواتُ:
وحدَكَ قابعٌ في غرفةٍ خشبيةٍ،
والبرقُ يصبغُ بالبنفسجِ لحظةً جفنيكَ،
يصبغُ بالبنفسجِ ما تبقّى من جدائِلكَ الجميلةْ.

«١١»

أحفادُه في الأرضِ ينتشرونَ كالأغصانْ
أحفادُه يأتونْ
أحفادُه في دهشةِ الإيمانْ
بنسَونَ ما يأتونْ.

«١٢»

يتقاسمُ الأحفادُ مملكةً مخرَّبةً: ويستهدونَ
بالسقطاتِ. ساحلُ حضرموتَ يمرُّ في النجمِ
الذي يتداولون مخبأً. والجَدُّ مرتسمٌ
على راحاتهم خَطّاً من التيزاب...
طولَ الليلِ ينتظرون حورياتِهم. والصبحَ ينتقلونَ
في العرباتِ. مفترقاتُهم كثرتْ، وأيُّ مسالكَ
اختلطتْ... وأيُّ معالمَ التاثتْ... أينهضُ بينهم
في الفجرِ، من سيشير معتنقاً ذراعَ حبيبةٍ،
متنكِّباً: «من ههنا سنسيرُ؟»
نصفُ محارةٍ في النهرِ،
نصفُ آخرُ التقطتْهُ حورياتُهم.
أيّانَ تنطبقُ المحارةُ مرةً أخرى...
ويأتيهم زمانُ السرِّ والتكوينِ؟
آتٍ أنتَ يا زمناً سنحياهُ
وآتٍ أنت يا زمناً سننساه

وآتٍ أنتَ يا زمناً نُبادلهُ مرارةَ حضرموتَ معاً
وندخلُ فيه دار الجَدّ. . .
فتياناً ملائكةً
ونُنبتُ نخلةً
ونعانقُ امرأةً
ونقولُ: عادَ الجَدّ. . .

مملكة معين

أهذا الذي قد تبقَّى؟
أمملكةٌ في حجرْ؟
أمملكةٌ من خطوطِ الحَجَرْ؟
أهذا الذي قد تبقّى...
إذن... كيف نفعلُ؟
هل نتقي بالخطوطِ ارتباكاتِنا
أم نرى وجهَنا في الخطوط؟

عدن، ١٦/ ٢/ ١٩٨١

هذيان

أتجيءُ الصحراءُ إذا دخلتْ في الغرفةِ قنبلةٌ؟
موسيقى. . . والبحرُ بعيدٌ، ومحارتُه في حوضِ
الفندقِ. لو أبلغُ أشجارَ دمشقَ. سلاماً لقميصي.
يرحلُ هذي الليلةَ. . . مَن؟ أثيوبيا خضراءُ.
وفي الرملِ الساخنِ يمضي السرطانُ البحريُّ.
أبغدادُ تنامُ؟ الطلقاتُ الإحدى والعشرونَ.
رأيتُ أبي في البابِ طويلاً نعسانَ. . .
سلاماً وهران. وفي ليلِ «القرويين» مخابئُ
بِنْ بَركةَ. أدخِلْني يا ربَّ القلعةِ غرفتَها.
سَهْبٌ أبيضُ. هل كانَ قطارُ الليلِ بطيئاً؟
عدنٌ سوداءُ. يدورُ السلّم كالحلزونِ.
قواقعُ تمشي بالعكّازِ. روائحُ كَمّونٍ. . . ثومٍ. . .
أين البارُ الصيفيّ؟ سَفانا. كيفَ يطولُ العشبُ
إلى أن أخفي فيه قميصي الرثَّ؟
سأسألُ عن نجمٍ في راياتِ الصيادين.
لماذا تورقُ في «صُورَ» الأشجارُ؟
وأسألُ عنكِ.

وأسألُ عنكِ.
الليلُ يجيءُ على عجلاتٍ.
طيرانٌ إسرائيليٌّ.
ترتجُّ الغرفةُ بالطلقاتِ.
ومن «بعقوبةَ» حتى بيروتَ.
من «الخندق» حتى بيروتَ.
ومن بيروتَ إلى قاطرةِ الحلزونِ.
لماذا؟

عدن، ١٥/ ٢/ ١٩٨١

تنويع

«١»

فَصَّلْتُ سماءً مغرقةً بالأزرقْ
ثم صنعتُ قميصي
ودخلتُ به حانة بحّارةْ
قدمتُ شراباً لثلاثةِ بحّارةْ
وجلستُ . . .
قال البحّارُ الأولُ: شكراً.
قال البحّار الثاني: فلنشربْ خمراً.
قال البحارُ الثالثُ: كيف لبستَ البحر؟

«٢»

فصّلتُ سماءً مغرقةً بالأخضرْ
ثم صنعتُ قميصي
ودخلتُ به حانةَ فلاحين
قدمتُ شراباً لثلاثةِ فلاحين
وجلستُ . . .
قال الفلاّحُ الأولُ: شكراً.

قال الفلاحُ الثاني: لا أشربُ خمراً.
قال الفلاحُ الثالثُ: كيف لبستَ العشبَ.

«٣»

فصّلْتُ سماءً مغرقةً بالأحمرْ
ثم صنعتُ قميصي
ودخلتُ به حانةَ عُمالٍ
قدَّمَ لي الخمرَ ثلاثةُ عمالٍ
فجلستُ...
قال الأولُ: شكراً.
قال الثاني: ما أعذَبَهُ خمراً.
قال الثالثُ: ما أبهى الساحةْ
لو كان قميصُكَ راياتِ الساحةْ!

عدن، ١٩/ ٢/ ١٩٨١

سواد

لا أُقَلِّبُ الاحتمالاتِ
أُقلِّبُ الحجر.
لا أُقلِّب الاحتمالاتِ
أقلِّبُ الجسد.

❋

أشتهي الآن نوارةً في دمشقَ
أقولُ لها: حين ألمسُ شَعَركِ
أو أتقرّاهُ،
أشعرُ أنا أفقنا معاً
من سريرٍ لشخصينِ. . .
نوارةٌ في دمشقَ
الكلامُ الوحيدُ الذي بيننا
راحةٌ وأصابعُ. . .
أغنيةٌ في دمشق.

❋

ربما نهبط الآنَ
أو نرتقي

ربما نلتقي حين نلمس أشياءنا
نتلامسُ
أو نتعرّى على حافةِ المائدةْ.
غير أني أسرِّحُ شَعركِ
إني أسرحُ شَعركِ
في غرفةٍ لم أجد بابها بعدُ،
فلنتفقْ،
ولنُقْمِ غرفةً... حافةَ المائدةْ.

❊

لا أُقلِّبُ الاحتمالات
أقلِّبُ الجسد.

❊

أنتِ مملكةٌ للسواد:
العيون
القميص
الجوارب
لكن مملكتي الشَّعر
لي أن أُفتِّحَ أدوارَهُ
ودوائرَهُ
وارتباكاتِهِ
ـ واحتمالاتِ تسريحةٍ في دمشق

❊

لا أُقلِّب الاحتمالات
أقلِّب الجسد.
لا أقلِّب الاحتمالات
أقلِّب الجسد.

*

هل تكونين أجملَ
حين أغطي بشَعركِ عينيكِ
وجهَكِ
حين أرى بين هذا السوادِ
الشفاهَ التي...
والمرايا التي...
والسريرَ لشخصينِ...
....
....
....
نائمةٌ في دمشق.

اليمن ـ سيّون، ٦/ ٢/ ١٩٨١

سحابة

تدنو السحابةُ، ثم تدخلُ في قميصي
حرةً، شفّافةَ الأبنوسِ
تبرقُ حين ألمسُها،
كأنّ براحتي حجرَ الخليقةِ. . .
أيها البرقُ الذي سمّيتُهُ الخصلاتِ
والمعنى
ورعشةَ أن يكون اثنان،
يا أغنيةَ الصلصالِ حين يصيرُ همساً أو دمقساً
هل تكون دمشقُ بين يديّ. . .
أم أني المغيَّبُ في دمشقْ.
أم أنني ودمشقَ نأى في السحابةِ:
في ارتجافِ فمٍ
ومفصلِ أصبعٍ
ودقيقتين من اتحادِ الغصنِ بالغصنِ؟
السحابةُ لا تجالِسُ
لا تجالسني
وتجلسُ وهي طائرةٌ. . .

أسَرِّحُ شَعرَها
وأُمسِّدُ البرقَ الذي يختضُّ بين يديّ. . .
ـ هل جاءت لتخطفَ نظرةً وتطيرَ؟
هل جاءت لتخطفَني
وأنا على الكرسيّ. . .
مشدودٌ بأوراقي وأحداقي إلى الكرسيّ. . .
آهٍ، يا سحابةُ
يا سحابةُ
يا سحابةُ. . .
أمطري ما بين جلدي والقميصِ
رذاذَ زنبقةٍ. . .
وطيري!

دمشق، ٢١/ ١/ ١٩٨١

المضيق

لم تجلسِ الأُمُّ الصغيرةُ تحتَ تاجٍ من غصونِ الياسمينِ،
وقد وُلدتُ، مهيأً ركنُ السقيفةِ لي. بلادٌ من
نخيلِ أبي الخصيبِ وحفنةٌ من تمرِها بيديّ.
كوخُ السعفِ قصري حين يأتي في الشتاءِ الرطبِ
ماءُ اللَّهِ. غصنُ التوتِ قصري في الظهيرةِ.
ألبستْني الأُمُّ في استعجالها قدمينِ حافيتينِ.
جِكْ جِكْ جِكْ...
أُخوّضُ في المياه، وفي سماءِ «الخبزُ ـ لا ـ يأتي ـ
كما ـ لا ـ يهبطُ ـ العصفورُ ـ في كفِّ ـ الصبيّ»،
أجوعُ حتى أعلكَ الأغصانَ
حتى أعلكَ المطّاطَ
حتى أعلكَ الثوبَ الوحيدَ
وأعلكَ الغَرَبَ المخبأَ في مذاق الشَبِّ
شَبَّ الشاب، شَبّ الشاب، شبّ الشاب
شبَّ الشاب، شبَّ الشاب، شبَّ الشاب
لكنْ ظلّت القدمانِ حافيتينِ... جِكْ جِكْ جِكْ

أخوّضُ في تظاهرةٍ، وأهتفُ عندَ رأسِ الجسرِ،
ـ أهتفُ في تظاهرةِ «البلادُ ـ تريدُ ـ خبزاً ـ لا ـ
رصاصاً»، ثم أسقطُ جائعاً.

*

واخترتُ أن أتتبعَ الأنهارَ، عبرَ خرائطِ الدنيا
وباطنِ راحتي. في حلقةِ الفانوسِ أنهاري تدورُ،
وتقفزُ الأسماكُ والأشَناتُ حولي. راحتي تستقبلُ
البحارةَ الغرباءَ. يأتيني قراصنةٌ بأثوابِ الملائكةِ..
الصحابةُ يسكنون توهُّجَ الفانوسِ في ركنِ السقيفةِ.
أيها الوجهُ الإلهيُّ: انتظرتُكَ... هل ترى نمضي
معاً في هجرةٍ أولى؟ و ـ هـ ـ و ـ لا ـ لا ـ و ـ
هـ ـ و ـ لا ـ لا ـ و ـ هـ ـ و ـ لا ـ لا ـ
إلى ترنيمةِ الأحباشِ، مومباسا، وزهرةِ حضرموتَ.
ويدخلُ العمالُ ملتحفينَ جزّاتِ الخرافِ...
مهاجرِينَ إلى بلادٍ لستُ أعرفُها... تقولُ
كتابةٌ أولى: ستبصرُها بباطنِ راحتيكَ،
فتدخلُ النهرَ المقدَّسَ، حافياً، متألقَ العينين،
تهبطُ في القرارةِ... ثم تنهضُ عبرَ أغنيةِ البلادِ إلى البلاد.

*

لكأنني أتحسَّسُ السعفَ القديمَ، أجيءُ منزلقاً
على الأغصانِ... تلتفُّ الجذورُ عليّ.

رائحةُ الترابِ تكادُ تخنقُني. وفي رئتيَّ يمنحُني
الهبوطُ المشتهى رئتينِ... آهٍ للغناءِ بنسمةٍ
أخرى، وللأرضِ التي التبستْ، ولليدِ
مُرّةً وطليقةً كالجذرِ، للرأسِ المدوَّخِ بالروائحِ.
قِنَّبٌ في الماءِ. أسماكٌ بباطنِ راحتي. امرأةٌ
تَجَرَّدُ من ملابسها الحميمةِ. عشبةٌ في
بحرِ سومرَ. خندقٌ بين النخيلِ. أتولَدُ الأشياءُ
من أضدادِها؟ والأرضُ من ينبوعنا السريِّ؟
والأغصانُ من شكل التفحُّمِ؟ هل سنمضي
من مضيقِ الأرضِ نحو الأرضِ؟ ماذا نرتجي
لو ضاقتِ الدنيا، وأطبقتِ الجهاتُ
الأربعُ؟ الموتى؟

بيروت، ١٠/ ١/ ١٩٨١

المعسكر

كلما انتصفَ الليلُ أوقدتُ نارَ المعسكرْ
ـ في النهارِ احتطبتُ ـ
ثم أنصَتُّ:
هل هذه خطواتُ الجنودْ؟
. . . .
. . . .
. . . .
كلما انتصفَ الليلُ جاؤوا بأطفالهم حولَ نارِ المعسكرْ
ـ أأطعمُ أطفالَكُم؟
● لا.
ـ أأطعمُكم؟
● إن أفواهَنا في الترابْ.
ـ أأسقيكمو؟
● كيف نشربُ؟
ـ أمنحُكم معطفي؟
● نحن موتى. . .
ـ إذن. . . كيف جئتُم إليّ؟

● نحنُ جئنا بأطفالنا.

. . . .

. . . .

. . . .

كلما طلعَ الصبحُ أطفأتُ نارَ المعسكر.

دمشق، ٢١/ ١/ ١٩٨١

قرار الاضطراب

الذكرى السادسة عشرة للثورة الفلسطينية

مقدمة

هكذا نجتمعُ الآنَ على مائدةِ الثورةِ:
نأتي بالبطاقاتِ التي كنّا سرقناها من القتلى،
ومن تبغِ الصحابيينَ،
من أحجارِ سورِ القدسِ
كي نسهرَ في بيروتَ
أو نسكرَ في نُزْلٍ على الشاطئِ
أو نستفسرَ الليلةَ، في الهاتفِ، عن بضعِ نساء. . .
هكذا نجتمعُ الآنَ على مائدةِ الثورةِ
جئنا. . . نحملُ التقريرَ، والبيعةَ، والصفقةَ،
جئنا كالدُّمى، في غفلةٍ، مدفوعةِ الأجرِ ـ
وجئنا كالدمى:
نسكرُ في نُزْلٍ على الشاطئ،
كي ننسى خيوطَ الضابطِ الأمنيّ،
والسهرةَ. . . تلكَ السهرةَ/ الصفقةَ في الملهى،
فبيتِ المستشارِ الصحفيّ،
الراتبَ الشهريَّ

والبيعةَ
والثعلبَ بين العينِ والقلبِ
وفي الدفترِ. . .
فلنجتمعِ الآنَ على مائدةِ الثورةِ
لكنْ. . .
لا نقلْ: «جئنا إلى الثورةِ. . .»،
لا نجتمعِ اليومَ على رأسِ الحسين!

«١»

سعفةٌ تنبتُ الآنَ في غصنكِ البرتقال
في السريرِ الذي يحتويكِ العشيّةَ، طعماً من البحرِ
من رملةٍ، غربَ بيروتَ، بيضاءَ، بيضاءَ، بيضاءَ
ـ أنتِ الملاءاتُ، والموجةُ. . .
إبتعتُ عرياً لأكسوكِ، إذ تنحنين على الشرفةِ الضيقةْ
وإذ تدخلين من الشرفةِ الضيقةْ
وفي شَعرِكِ الجَعْدِ. . . تَضَوَّعُ الزنبقةْ
والقناديلُ بيضاءُ، بيضاءُ، بيضاءُ
في غرفةٍ كلُها أنتِ
في رملةٍ، غربَ بيروتَ، بيضاءَ، بيضاءَ، بيضاءَ
في شرفةٍ مغلقةْ.

«٢»

أمي إلى حَجرٍ على الدامورِ. . .
أرقى سُلَّمَ المطرِ، المموَّهَ بالحشائشِ والظلامِ
أقولُ: أخطو خطوةً أخرى،

وأخجلُ. . .
آه، يا وَهَناً يشدُّ الركبتينِ إلى اعتيادِهما
وآهٍ للمدارسِ علَّمتني أن أكونَ معلِّماً. . .
لو كان لي شَغَفُ الأيائلِ
لارتقيتُ السلّمَ المطريَّ وثباً، والتمستُكَ يا حَجَرْ

«٣»

نخلةٌ تنبتُ الآنَ في جذعِكِ البرتقال
نخلةٌ ما أظلَّتْ غريباً
نخلةٌ خلَّفتني غريباً
غالبتْني، وما اسَّاقَطَتْ. . .
ثم غادرتُها. . . أنفضُ الرملَ عني
أنفضُ الذلَّ عني
أهتدي بالمحطاتِ مهجورةً،
والمرايا التي هشّمتْها العيون.

«٤»

في المكتبِ الصحفي أنتظرُ الغزالةَ. . .
كامناً في قهوتي والشايِ والذكرى،
الغزالةُ ناولتني الخيطَ ثم مضتْ،
ولم تتركْ على الكرسيّ
غيرَ الضوءِ من نوّارةٍ مقضومةٍ. . .

لو كنتِ أيتها الغزالةُ جئتِني في الفجرِ
أيامَ الندى يهتزُّ في الخُصلاتِ
في قُطنِ القميصِ
وفي التماعِ المقلتينِ. . .
تعبتُ أيتها الغزالةُ:
منكِ
من عينيكِ
من تعبي. . .
فهل ألقاكِ أيتها الغزالة؟

«٥»

نخلةٌ تذبلُ الآن في جذعكِ البرتقال
من أتانا وقال:
إنها نخلةُ المقبرةْ؟

«٦»

بأزقةِ اليرموكِ:
بينَ توثُّبِ المغزى
وأغنيةِ الفلافلِ
والمقراتِ الأليفةِ. . .
كان وجهٌ حيثما حدّقتُ واجَهَني،
غريباً، مثقلَ العينينِ

سَمْحاً، غيرَ أن غضونَهُ تمتدُّ. . . في اللحظاتِ
خطّاً يمّحي، خطّاً يجيء،
ولما اشتبكتْ خطوطُ الوجهِ، أبصرتُ المخيَّمَ،
كان بين توثُّبِ المعزى
وأغنيةِ الفلافلِ
والمقراتِ الأليفةِ:
طائراً
كفّاً
كتيبةَ أرجوانٍ
ساحلاً في الصيفِ. . .
أو بيتاً ببيسانَ القديمةْ.

«٧»

سعفةٌ تسقطُ الآنَ عن غصنكِ البرتقال
آهِ، بيضاءُ، سوداءُ، حمراءُ، خضراءُ
خضراءُ
خضراءُ
إني أحبكِ خضراءَ
الريحُ خضراءُ
والغصنُ أخضرُ،
هل فتّحتْ نخلةٌ زهرةَ البرتقال؟

«٨»

أمضي إلى حجر بسورِ القدسِ
أبرأُ خالقي حجراً
وأسجدُ. . .
أفتدي بالخالقِ المخلوقِ. . . قُوتَ دمي
وأهبطُ في قرارِ الاضطرابِ
ومنزلِ الفوضى
وأعلنُ:
أنني المبدأْ
وإني من هنا أبدأْ. . .
وإن الماءَ والأسماءَ تحت أصابعي تبدأْ

تشريح

هراء ١

بادَلَني الليلُ بعينيَّ
فقلتُ: إذن، مَن يبصُر هذا الليلِ؟
بادِلْني ما شئتَ: قميصي، صيحةَ أغصاني
قبرَ أبي، لكنني سأظلُّ طريدَ الليلِ
أطاردُه...
حتى لو دارَ على أهدابيَ نجمُ الليل.

أغنية ١

يا ليلُ، مَرَّ الندى، وأظلمَّت الوردةْ والصبح... من يذكرُ الصبحَ الذي عندهْ؟ الناسُ صارت تشوفُ الشوكَ والوردةْ في واحدٍ... آهِ لو كلّمتُهُ... وحدَهْ.

سؤال ١

أتظلُّ تخدعُكَ القصيدةُ في مَزالقها؟
أما زال التأنُّقُ، والشذى الريفيُّ

حتى حينَ تشهَقُ في احتضارِكَ؟
لا تقلْ: ما أجملَ الكلمات
مات، مات، ومات...

ضمير وحيد

فارسٌ جاء من صخرةٍ... فارسٌ من بلادٍ بعيدةْ
ثم ماذا؟ الكلامُ الهراءُ
المجازُ. الجناسُ. الطباقُ. القصيدةْ
آهِ يا امرأةً لم تجدْ بعدُ حتى القصيدةْ!

هراء ٢

غير أني أغني لها، قادماً من بلادٍ تُسمَّى بلادي
وأسمَيتُها المقبرةْ
غير أني أغني...
وإن ضاقت الأرضِ، وامتدّت المجزرةْ
غير أني وحيد
في شوارعَ مسكونةٍ...
في قرىً للرصاصِ المراوغِ
في شرفةٍ
أو نشيدْ.

سؤال ٢

لكأنكَ استمتعتَ بالذاتيّ
تمنحُه حناناً لستَ تعرفُه
ـ كأنكَ تهجسُ الأزهارَ في وَهَجِ الحرائقِ.
قُلْ: مددتُ يدي
فلم أعرفْ سواي،
صراحةً. . .

هراء ٢

مضى مثلما جاء. . .
هذي المدينةْ
مثل كلِ البلادِ التي ظَلَّ فيها الشريدْ
ظلّ فيها الوحيدْ
ظلّ فيها
ولكنها. . . مثل تلك المدينةْ
اطفأت نارَها، واكتفتْ بالبريدْ

سؤال ٣

هاأنتذا. . .
خلّفتَ قوقعةً
لتدخلَ شبهَ قوقعةٍ. . .
لماذا؟

أغنية ٢

من بعدِ خمسينَ. . . داري لم تَعُدْ داري يا صاحبي. . . لا تجاورْ عَتبةَ الجارِ ما تُنبتُ الوردَ حتى ديرةُ الداري ما أوحشَ الليلَ. . . لولا خطوةُ الشاري من بعدِ خمسينَ، أمشي خُطوتي. . . يا ليل

كم قلتَ إنكَ لستَ تعرفُ كيفَ ترتكبُ القصيدةْ
ماذا فعلتَ؟
كتبتَ. . .
ثم محوتَ؟
أم قلتَ الهواجسَ مثلما جاءتكَ. . .
عاريةً
مشوشةً. . .
على أثوابها الدُّفلى وعشبُ البحر. . ؟
صمتا.

دمشق، ٢٥/ ١٠/ ١٩٨٠

الخنزير

راقبتُ أرضَ اللَّهِ، لم أسألْ لأنَّ نيازكاً سقطتْ، ولكني سألتُ لأن زهرتَنا الوحيدةَ حين مَدَّتْ عنقَها قُطِعَتْ. سألتُ لأن خزّافاً تراكضَ في أصابعنا طويلاً ماتَ من جوعٍ إلى الطينِ النقيّ. سألتُ: أيَّ مدينةٍ نبني... ولم نكتبْ على حَجرِ البراكينِ انطفاءتَنا؟ وأيَّ الطيرِ نُطْلقُ، مَرَّ بي رجلٌ من المِعدانِ:

«إن الموتَ قاسٍ. هل بنينا منزلاً يبقى؟ وهل عَقْدٌ ختمناهُ يدومُ؟ وهل يفيضُ النهرُ دوماً؟ والفراشةُ لا تكادُ تشقُّ شرنقةً وتبصرُ وجهَ هذي الشمسِ حتى يصطفيها الموتُ...»[1] في بدءِ الخليقةِ مَرَّ بي الرجلُ الفلسطينيُّ: أنظرْ... للحجارةِ طعمُ قلبي. هل مصصتَ نواةَ تمرٍ بعد أن عُلِكَتْ؟ يظلُّ الآسُ ينبضُ زهرةً بيضاءَ. تحرقهُ الصواعقُ وهو ينبضُ. يعتليه الرملُ والحشراتُ والموتى... وينبضُ. تأكلُ الديدانُ كلَّ جذورهِ، جذراً فجذراً، وهو ينبضُ.

مَرَّ بي حَرَسُ الظهيرةِ: نحن نعرفُ من مُحَيّاكَ اختيارَكَ... نحن نعرفُ أن «وجهاً ناحلاً. عينين جائعتين»[2]، سوف تُقيمُ

---

(١) من حديث أوتونبشتم إلى جلجاش في «قصة الطوفان»

(٢) شكسبير ـ من «يوليوس قيصر»

عاصمةَ الخليقةِ. أدخَلوني منزلَ الخنزيرِ. شقُّوا بغتةً صدري. وأخرجَ واحدٌ قلبي، وأبدَلَهُ بمنفحةٍ. . .

ـ لقد أصبحتُ خنزيراً.

بغداد، ١٩٧٥

النـهر

«١»

طفلٌ عندَ سياجِ السطحِ الهابطِ
يفتحُ عينيهِ
النجمُ الشاحبُ يدنو من جِذعِ النخلةِ
ثم يغيب. . .
نجمٌ آخرُ في الجذعِ يغيب
آخَرُ. . .
آخَرُ. . .
آخِرُ نجمٍ كان يغيب.
هل يطلُعُ طيرٌ أحمرُ بينَ نجومِ النخلْ؟
هل يُطلقُ عبرَ التلّ ـ
صيحتَهُ؟
ينكشفُ النهرُ ضبابيَّ الضفتينْ
يلمعُ في العينينْ
موجاً وحشائشَ. . .
في الفجرِ يسيرُ الطفل

قدماهُ تجسّانِ ترابَ الممشى
وتُحسّانِ نعومتَهُ تترطّبُ بينَ أصابعهِ
ـ مثلَ السَّرطانِ النهريّ،
وتزلقُ أسماكٌ من طينٍ في الممشى.
تنحدرُ الضفةُ . . .
الحَلْفاءُ القاسيةُ الغبراءُ تشفُّ وتخضرّ
يشمُّ عروقَ السّعْدِ، يدورُ النهر
الماءُ تحرّكُهُ أسماكٌ وسلاحفُ ترفعُ أعناقاً خضرء
قدماهُ تجسّانِ برودةَ ماءِ النهر
والفجرُ البالغُ يغسلُ في الماءِ جدائلَهُ
ويخبِّئُ تحتَ التوتِ ينابيعاً من ذهبٍ
يستكشفُها طفلٌ تحتَ التوت.

«٢»

كانَ عُريانَ في الفجرِ. مستوحداً تحتَ نخلةْ
كلُ ما كانَ يملكُه يسكنُ الجذعَ: أثوابهُ
والترابُ الذي في النسيج
والترابُ الذي في النشيج
والترابُ الذي في عيون المذلّةْ.
كان عُريانَ في الفجرِ. مستوحداً والمياه
حاملاً ليلَهُ في يديه
حاملاً صبحَهُ في يديه

عكراً، صافياً، كالمياه.
أيُّ غصنٍ شبيه
ينزلُ الماءَ في الفجر، أو يرتديه
أيُّ صوتٍ شبيه
كان يدعوه، أو كان يرتدُّ فيه؟
إنه الماءُ... هل يتشرَّبُهُ جِلْدُه؟
مثلَ تلكَ الوريقاتِ؟
هل ينتهي ـ
مثلما جاءَ؟
ماءُ الصباحِ، العذوبةُ... تلكَ الطراوةُ
في أن يعودَ إلى المهدِ... في أن يراقبَ
أطرافَهُ تستكينُ. السماءُ على الماءِ مخضلَّةٌ،
وهو في الماءِ، مضطربٌ ـ ساكنٌ، هو في الماءِ:
مضطربٌ ـ ساكنٌ
ساكنٌ
ساكنٌ.

«٣»

فجأةً، يسقطُ في الليلِ، كما لو لم يكنْ صبحٌ...
أهذي الموجةُ السوداءُ ما كان مِهاداً دافئاً؟
تغدو جذورُ السّعْدِ أطرافَ مساميرَ...

ولونُ الماءِ يَسْودُّ،
يدورُ السمكُ الدائخُ مقلوباً. . .
ويسعى سرطانُ النهرِ،
كلاّباتُهُ مرفوعةٌ، في الضفةِ الطينيةِ.
الماءُ الذي كانَ بساطَ التوتِ والتمرِ،
تدلتْ فوقَهُ أزهارُ دُفلى لم تكنْ في شاطئِ البستانِ،
أزهارٌ مليئاتٌ عصيراً
ربما سَمَّمتِ الماءَ إذا دارتْ به حيناً. . .
وفي الماءِ يدورُ الطفلُ:
كفاهُ تحومان
وعيناهُ تغيمان
ورجلاهُ تنامانِ على إعيائهِ الليليّ. . .
يدنو قمرٌ أصفرُ من أثوابهِ الملقاةِ عند الجذعِ،
كان الطفلُ عُريانَ،
وفي مَفرِقهِ يشتبكُ الطحلبُ،
والدفلى ترشُّ الماءَ بالزهرِ الذي يخنقُ. . .
في أيِّ البساتينِ تراءى الطفلُ؟
من أيِّ سبيلٍ جاءَ؟
والنهرُ الذي يغفو به الآنَ؟
تُرى، هل كانَ. . . هل كانَ؟
ضبابٌ قاتمٌ يهبطُ فوقَ السمكِ الدائخِ والماءِ

ضبابٌ قاتمٌ يهبطُ فوقَ الطفلِ
والليلِ
وصمتِ الأشَنات

«٤»

بعيداً عن الناسِ، تدنو فتاةٌ من النهرِ. . .
كانت تشمُّ الغصون
تلمُّ القواقعَ
تقتطفُ اليانسونَ الطريّ. . .
بعيداً عن الناسِ، كانت تسيرُ إلى نخلةٍ،
جلست عندَها
وهي تجمعُ أثوابَهُ. . .
ثم تحملُها باعتناء.

بغداد، ١٩٧٥

التسلل

نتفيأُ أوراقاً ذابلةً
نشربُ أوراقاً منقوعةْ
نقرأُ أوراقاً قُرئتْ في العامِ الفاصلِ بين النومِ وجمعِ القوتْ
نبحثُ عبرَ شقوقِ التابوتْ
عن شجرٍ
نبحث في التابوتْ
عن حجرِ الحكمةِ
نصنعُ في زاويةِ التابوتْ
خلفتَنا
ونرى العالَمَ في التابوتْ.

❋

أي كتائبَ في زهراتِ الرمّانِ الأولى؟
أيةُ بتروغرادَ تلوِّحُ في غصنِ قرنفلةٍ؟
أيُّ قرامطةٍ من سوق الأحساءِ يدورونَ بأغنيتي؟
أيُّ فلسطينيٍّ ينهضُ في الكلماتِ المخبوءةْ؟

❋

في هذا الوطنِ المتسللِ نحو التاريخْ
في هذا الوطنِ المبعَدِ عن أفكارِ الشجرةْ
أفتحُ ثقباً في التابوتْ
أبصرُ:
ثوريينَ بقاعاتِ الرقصِ
بناةَ منازلَ مشبوهةْ
ملتزمينَ كحولَ الصبحِ
وإفسادَ الفتيات.

*

لم يتعلمْ هذا الطفلُ المنحوس
لم يتكلمْ ما يتكلمُه الأولادُ المغسولون
لم يسكنْ في غرفٍ مانعةٍ للصوت
لم يشربْ ماءَ الورقِ المنقوع
لم يعشقْ إلا امرأةً واحدةً...
لم يعرفْ أن يأكلَ لحمَ أخيه
ولم يخطئْ ذاكَ الخيطَ الواصلَ
بين النجمِ وبيتِ أبيه.
بيتٌ أبعدُ من كلِ بيوتِ الشام
تفتحهُ امرأةٌ يعرفُها.
بيتٌ أقربُ من كلِ بيوتِ الشامِ
تفتحُه امرأةٌ لا يعرفُها.

بيتٌ في بتروغراد
فتحتْهُ امرأةٌ يعرفها.
بيتٌ في بغداد...

بغداد، ١٩٧٧

مناظر متفرقة

غيماتٌ بيضٌ تركضُ في الريح
وأغصانُ النبتِ المتسلقِ
ترفعُ أذرعَها
بينَ الحائطِ والأسلاكْ
وتنادي الغيماتِ البيضَ:
خُذيني.

*

أعرفُ هذا الطالعَ بين الأشجار
أعرفُه،
كلَّ ربيعٍ كان يُحدِّثني
يستقبلُني عند البوابةِ
يُدخلني مملكةَ الأشجار.
أعرفُ هذا الطالعَ
لكنّ الطالعَ هذا العام
أوقفَني عند البوابةِ
لم يُدخلْني مملكةَ الأشجار
لم أسألْهُ: لماذا؟

*

سبعُ مداخن
تتنفسُ عبرَ سطوحٍ مغبرّةْ
سبعُ مداخن
تخمدُ عبرَ سطوحٍ مغبّرةْ
سبعُ مداخن. . .
أيةَ واحدةٍ يختارُ الطائر؟

بغداد، ١٩٧٦

البطء

أستقبلُ القطرةَ، مدفوعاً من المحيط.
أيةُ أصواتٍ أناديها من الغرفةِ؟
هذا التعبُ البطيء
هذا رصاصُ السنواتِ، الصدأُ الهابطُ كالفُجاءةِ
النومُ على الأسلاكِ،
في قوقعةٍ نهريةٍ ألمُّ حبّاتٍ من الرملِ الذي
ما خالطَ الطينَ،
فتاةٌ لا أراها، تصرخُ الليلةَ
بين الجدولِ اليابسِ والحَلْفاءِ.
هل مرَّ بنا العصرُ الجليديُّ؟
نباتٌ ناتئُ الأوراقِ، ملعونٌ، على أبوابنا. . .
أفتحُ شبّاكاً، وأسترضي وريقاتٍ من التوتِ
الجواميسُ تخوضُ الماءَ ضحضاحاً،
ويبقى الزنبقُ الواسعُ في أعناقها.
راياتُ عبدِ الناصر الملقاةُ في الوحْلِ اليساريّ.
الكحولُ:
الحربُ

لم نعرفْ بها يوماً
ولم نجهلْ بأنَّ الحربَ دائرةٌ. . .
بلادٌ أنتَ أدرى بالذي فيها.
الكحولُ:
الليلةَ اخترنا موائدَنا، وهيأنا المواضعَ حولها
غِبنا، وغنّينا، تحدّثنا، كذَبنا
ما الذي نأتي غداً؟
والحربُ لم نعرفْ بها يوماً
ولم نجهلْ بأنّ الحربَ دائرةٌ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
فتاةٌ لا أراها، تصرخُ الليلةْ.

بغداد، ١٩٧٧

الدورة

أتدورُ بي؟
دارت بي الأغصانُ، لم تتركْ بكفِّي غيرَ رائحةٍ،
ودارتْ بي الزهورُ، فخلّفتْ لي وحشةً، ومضتْ. . .
ودارتْ بي الجذورُ، فلم تَدَعْ لي غيرَ لوعتِها
ودارتْ بي شجيرةُ بيتنا يوماً،
ولكنْ البنوّةَ غادرتْ
ومضيتُ:
ساءلتُ الغصونَ ولم تُجِبْ،
وسألتُ زهرةَ عمريَ الأولى، فما نطقتْ
وحينَ سألتُ جذراً كان في إيماءتي اليسرى ولم ينطقْ ـ
سألتُ شجيرةً بالبيت
لكني مضيتُ:
تقودني طُرقٌ، وتُسْلمني إلى طرقٍ
مضيتُ:
أقودُها طُرقاً، وأُسلمُ بعدَها طُرقاً
مضيتُ:

أثمّتَ البستانُ، يُعتمُ في الظهيرةِ؟
كان بين هوائه شيءٌ كمنتبَذِ اللقاحِ،
كزهرة النوّامِ، شيءٌ في الهواءِ
يشفُّ، يُعتمُ. . . زهرةُ النوّامِ،
رائحةُ السفينةِ حين تُدهَنُ بالغِراءِ،
القِنَّبُ المنقوعُ. أضغاثٌ من العشبِ
الجَنيِّ عشيّةً. والنخلُ يلمسُ سعفُه
الأرضَ النديةَ. في الجداولِ تنشِقُ
الأسماكُ ضوءَ التوتِ أحمرَ. . .
كلّمتني عند سدرتهِ اليتيمةِ،
عند سدرةِ منتهاهُ يمامتانِ
رأيتُ جَدّي في مَمَرِّ الآسِ،
جَدي يستريحُ،
مُلاعباً أسماكَهُ. . .
عيناهُ زرقاوانِ تبتسمانِ لي،
ويداهُ تمتدّانِ. . .
ثم رأيْتني أدنو
وكان يرشّنَي بالماء
كان يرشّني بالماء
كان يرشّني. . .
ودنوتُ:

لم أنظرْ إليه
ولم أقلْ . . .
ـ لكنني صلّيتُ بين يديه ممتنّاً،
وقمتُ.

بغداد، ١٩٧٧

مريم تأتي...
قصائد بيروت

(١٩٨٢)

كتبت هذه القصائد بين ٣/ ٦/ ١٩٨٢
و٥/ ٨/ ١٩٨٢ في بيروت المحاصرة

حماسة

أريدُ أن أسألَ في بيروتْ
عن اسمِها، عن قلبِها الياقوتْ
أريدُ أن أدخلَ في بيروتْ
باسمِ التي قبّلتِ الجمرةَ في عينيّ
باسمِ التي ضعتُ بها، لكنها نامتْ على عينيّ
وقبَّلَتْني مرّةً أخرى
وقالت: نحنُ أهلُ الحيّ
أريدُ أن أنامَ في بيروتْ
هنيهةً...
أريدُ أن تمرقَ عني طائراتُ الغزو
هنيهةً...
أريدُ أن استقبلَ الأغصانْ
في شقّتي،
أريد أن أسكنَ في أسئلةِ الأطفالْ
بين السياسيّ وبين الغارةِ الأولى
بين يدي والرعدْ
بين الفجاءاتِ التي تخمدُ والأنشودةِ

الأولى
أتّقدُ الليلةَ في خضّةِ هذا الرعدْ
أدخلُ في الغارةِ
في المغارةِ:
المذودُ، والنجمُ، وهذي مريمُ الحلوةُ:
الـ. . .
يَهْ، يَهْ، يَهْ، يَهْ
يا شوارع
بيروت الحرب اليوميّةْ
مدينةٌ تصرخُ بالعالم
مدينةٌ تصرخُ بالرايات
مدينةٌ تصرخُ بالصرخةِ في الرايات
تصرخ بالبلّورِ والبازلتْ
تصرخُ: وحدي في دمي ما زلتْ
ونقولُ: نقاومْ
ونقولُ: ستبقى بيروت
ونقولُ: هنا بيسانْ
ونقولُ: هنا نسقط قتلى
ونقولُ: هنا ننهض قتلى
ونقول: لنا لبنان. . .

بيروت، ٢٥/٦/١٩٨٢

أيها الأخوة

قبل أن نحتفي بانكسارِ الصنوبرْ
قبل أن نشتري للإله الجميلِ سريرَ الإبَرْ
قبل أن نلقيَ الأسلحةْ
قبل أن نشتمَ الأصدقاءْ
قبل أن ننتقي خشبَ الشقِ المقبلةْ
قبل أن نصنعَ المقصلةْ
قبل أن نبتدي بالمراثي
قبل أن نتقنَ الفلسفةْ
قبل أن نتنافسَ في فطنةٍ لم تكنْ
قبل أن يتوازنَ قصرُ الشتاءِ وأمُّ القرى
قبل أن نتذكرَ واشنطنَ العادلةْ
قبل أن نتقرى عناوينَ منسيّةً في الخليجْ
قبل أن تتخفّى الهويّةُ ملفوفةً بالنشيجْ
قبل أن نبتدئْ
قبل أن ننكفئْ
قبل أن نتباهى بأن فلسطينَ ليست على الخارطةْ

قبل أن نختفي في قصيدةْ
قبل أن. . .
ثمت الأرضُ، ثمت: «بعدُ». . . البعيدةْ

بيروت، ١٩٨٢/٦/٣٠

أبدأ.. لأظلَّ أبدأ

افتتاح

يأتيكَ هذا البحرُ باليوميّ
بالنبأ الذي لمّا يَعُدْ نبأً،
وتأتي الطائراتُ من اختناقِ البحرِ
تطوي في متاهاتِ المبادئِ حاجزاً
وتدقُّ للأطفالِ عنقوداً من البارودِ
واللحمِ المشظّى.
أيها البحرُ المغادرُ في الهدير المدفعيّ
ويا مهاداً للبوارجِ وهي تخلطُ بالرصاص
الماءَ والصاروخَ
يا بحراً عرفناهُ ولم نعرفهُ
تهنا فيه حتى ضاعت الأغصانُ عنّا
فانتبهنا ليلةً
لنكونَ خلفَ الساترِ المتواضعِ...
انتبهتْ لنا بيروتُ، فانتفضتْ
وأرختْ شَعرَها الوحشيَّ
مشرعةً ذوائبَها إلى الأفق الملبَّدِ
ليلةً، ونموتُ

أو شهراً ونحيا
أو سنينَ فنستكين إلى الشواطئِ
نغرزُ الراياتِ في الرملِ المبللِ
ثم نَبْرأ زهرةً بحريّةً حمراءَ
نبرأُ زهرةً أولى. . .
لماذا دارت الأسلاكُ دورتَها؟
لماذا استنطقتْنا ريشةُ العنقاءِ أعواماً
ولم ننطقْ؟
وأيُّ العابرينَ أستوقفَ العربات مسرعةً
فخلّفناهُ؟
خلّفنا إله الضربةِ العمليقَ؟
رشّاشٌ أمام البحرِ
مريمُ ضد بارجةٍ
جناحا طائرٍ في وجهِ طائرةٍ،
ويونسُ يرصدُ الحيتانَ. . .
كان البحرُ أسودَ كالسماءِ
البحرُ منبسَطُ الرصاصِ
البحرُ مَقلعُ كلِ ما يهوي على صفة المدينةِ
والسماءُ بغيضةٌ كالبحرِ
آلافُ المدارجِ والمطاراتِ: السماءُ
وملعبُ اللّه اليهوديّ: السماءُ
ونحنُ بين البحرِ نجلسُ والسماواتِ.

استدارَ فتىً إليّ، وقال: أين النجمُ؟
قالتْ لي فتاةٌ: هل رأيتَ قرنفلاً؟
وتساءلَ اللَّهُ الفلسطينيُّ
عن أوراقِ سدرتِهِ:
سنجلسُ هكذا، متزاحمينَ على امتدادِ البحرِ
نجلسُ واثقينَ بساترٍ متواضعٍ
وبمدفعٍ وقذيفتين ورايةٍ سوداءَ،
نجلسُ في حصارِ البحرِ نمضغُ لحمَنا
متلذذينَ،
ويجلس الحلزونُ ملتصقاً بأوراقِ الشجيرةِ
«سَمِّني»... قالت تُماضرُ.
«سَمِّني»... قال امرؤ القيسِ.
السماءُ بغيضةٌ كالبحرِ
والفتيانُ يقتسمونَ بين قذائفِ الـ م/ط
أسماءً وماءً من مراعي اللَّهِ.
كان الصخرُ ينبتُ،
والسواترُ مثلهم تعلو...
وكانت موجةٌ خضراءُ
كانت موجةٌ حمراءُ
كانت موجةٌ بيضاءُ
كانت موجةٌ سوداءُ تعلو،
والسماءُ خفيضةٌ كالبحر...

حي السلم

أسلمتُ «حيَّ السلّم» العينينِ
قلتُ له: سأبصرُ ما تُبَصّرني
سأقرأُ ما تقولُ حجارةٌ لحجارةٍ،
ما يهمسُ الشبّاكُ للشبّاكِ
ما تستروحُ الأبوابُ. . .
أقرأُ ما تنوءُ به الغصونُ
وبعضَ ما تُخفي حدائقُكَ الصغيرةُ
أو تدورُ به أزقتُك الحفيرةْ
في المخبأ السرّيِّ
أشرعْنا النوافذَ للرياح الأربع الثملاتِ
لم نتركْ مكاناً للهواجس غيرَ هذا الصمت
كان رفاقُنا الضباطُ يرتجلون أغنيةً:
وماذا لو تخلَّوا كلُهم عنا؟
وغنّى الرفقةُ الضباطُ:
«حيُّ السلّم» الدنيا، ووقفتُنا الأخيرةْ.
ما بين حائطِكَ المثلّمِ والعدوِّ، خُطىً

وما بين الخُطى والموتِ غَمضةُ مقلةٍ يُسْرى
سلاماً أيها الحيُّ المتوجُ بالقذائفِ
أيها الحيُّ الذي اخترناه جُلجُلةً.
سلاماً للصبايا في بساتين الخضارِ
وللشبيبةِ في المحاورِ
للشهادةِ في السريرةْ.

الفاكهاني

نقولُ له مساءَ الخير، حسبُ
وننقلُ الخطواتِ سرّاً في المساءِ إلى مكاتبهِ
نُلملمُ في تعجُّلنا دفاترَ وأسطواناتٍ وأختاماً
وأشرطةً مسجّلةً
وأرقامَ الهاتفِ في زوايا العالم القُصوى
وقمصاناً ستنصُلُ، مثلَنا، ألوانُها
ونظلُّ نحملُها إلى القاراتِ
نحملُها إلى تلكَ المطاراتِ العدوّةِ
والشقيقِ النذلِ
والمدنِ الغريبةِ
والضواحي. . .
هل نأتْ، في الريح، جمهوريةُ الفقراءِ؟
هل كانت سلالمُنا ـ مكاتبُنا، الذهولَ؟
وهل مضَينا، دون أن ندري
إلى الخطرِ الكبير
إلى معادلةِ الجذور. . .
وحينما وقفتْ سلالمُنا وقعنا؟

ليل الحمراء

شمعةٌ في الطريقِ الطويلْ
شمعةٌ في نعاسِ البيوتْ
شمعةٌ للدكاكين مذعورةً
شمعةٌ للمخابزْ
شمعةٌ للصحافيّ يختصُّ في مكتبٍ فارغٍ
شمعةٌ للمقاتلْ
شمعةٌ للطبيبةِ عند الأسرّةْ
شمعةٌ للجريحْ
شمعةٌ للكلامِ الصريحْ
شمعةٌ للسلالمْ
شمعةٌ للفنادقِ تكتظُّ بالهاربينْ
شمعةٌ للمغنّي
شمعةٌ للمذيعين في مخبأٍ
شمعةٌ لزجاجةِ ماءْ
شمعةٌ للهواءْ
شمعةٌ لحبيبين في شقةٍ عاريةْ

شمعةٌ للسماء التي أَطبقَتْ
شمعةٌ للبدايةْ
شمعةٌ للنهايةْ
شمعةٌ للقرارِ الأخيرْ
شمعةٌ للضميرْ
شمعةٌ في يديْ

أيها المقاتلون

ألأنّ هذا البحرَ نعرفُ كيف نحرثُه، أرادَتْنا البوارجْ؟
ألأنَّ هذي الأرضَ فِلذتُنا، أتتنا الطائراتْ؟
ألأننا الفقراءُ، أغلَقَ عالمٌ عنا منافذَهُ. . .
وخلّفنا على متراسنا الأولْ؟
ألأنّ عشبَ اللّه لا يُقتلْ
قطعوا علينا الماء؟
ألأننا الأبناء
عرضوا علينا أن نكونَ سفينةً في عَتمةِ الأنواءْ؟
ألأنّ أيدينا أرادتْ حرفةً غيرَ التسوّلِ
أطبقَ الأعداءْ؟
لكننا ننهضْ
في ضعفنا ننهضْ
في جرحنا ننهضْ
في قتلنا ننهضْ
ونسيرُ نحوَ البحرْ
في فيلقٍ مغبّر
في غاسقٍ أحمرْ. . .

بيروت، ٦/ ٧/ ١٩٨٢

أيام حزيران

في صباحٍ حامضٍ، يتناولُ الجنديُّ بندقيتَهُ
ويكسرُها على شجرةٍ.
في صباحٍ حامضٍ، يتناولُ خليل حاوي بندقيتَهُ
ويكسرُها على رأسهِ
في صباحٍ حامضٍ، يتناولُ «س» الشايَ وحيداً.
هكذا في الصباحاتِ الحامضةِ، يتخمّرُ نسيجٌ حيّ
وتكونُ الشمسُ مشوشةً
ويكونُ البحرُ ضباباً
وتدورُ الأسطوانةُ على نفسها
كذلك الصحيفةُ
والمنظمةُ
وماءُ صنّين
والطائراتُ المدنيةُ
ومراكزُ الأبحاثِ المعاديةُ للماركسية
والطريقةُ المثلى لالتقاءِ الجسدِ بالجسدِ
ليس في نيةِ الشجراتِ التي قربَ نافذتي أن تدورْ
ليس في نيّة البحرِ أن يترقرقَ أخضرْ

ليس في نيّةِ السائرينَ العبورْ
غير أني أُهدهدُ، في السرِّ، أرجوحةً
استشفُّ المياهَ التي في الشجرْ
والمياهَ التي سوف تخضرّ في البحرِ
تلك المياهَ التي سوف تعلو إلى النافذةْ
ثم أمضي، خفيفاً، إلى شرفاتٍ تدورْ

ما الذي جعلَ الظهيرةَ هكذا
ثقيلةً بالأبخرةِ والزجاجاتِ الفارغة؟
مَن الذي أجلسَ على الكرسيّ الواطئِ
عقيداً لمدرّعاتِ العدوّ؟
ما الذي علّمَ الخنزيرَ أن يأكلَ الوردةْ؟
وهذا الهديرُ الآتي من سماوات فلسطينية. . .
أيحملُ صاروخَ القيامةِ؟
الظهيرةُ ساخنةٌ منتفخةٌ
مثلَ كبشٍ تحتَ شجرةٍ هزيلةٍ
الظهيرةُ تُغمضُ عيني كلبٍ مقرّحتين
الظهيرةُ تتمددُ على البحرِ
مثلَ حوتٍ قتيل منذُ عشرةِ أيامٍ.
وفي فنادقِ المهجَّرينَ ذواتِ الطوابقِ الألفِ
روائحُ جواربَ شتوية
وحليبٍ

وزيتٍ نباتيّ
وحقولٍ بعيدةٍ.
الظهيرةُ تختلجُ.
عندما تمرقُ الطائراتْ
وهي تهدرُ...
يهتزّ عِرقٌ ضئيلْ
بين صدغي وعينيّ
يهتزُّ هذا الفضاءُ المحدَّدُ بين السيجارةِ والمنفضةْ.
عندما تمرقُ الطائراتْ
يتصلَّبُ شكلُ الشظيّةِ في الروحِ
ثم تكونُ الشظيّةْ
روحَ هذا الإلهِ المزوّرِ
هذا الإلهِ اليهوديّ
هذا الإلهِ القبيح.
لا أريدُ أن أراكِ في مساءٍ آخر
أريدُ أن أراكِ هذا المساءَ، هذا المساءَ فقط.
السفينةُ مثلُ بارجة
والبارجةُ مثلُ بارجة
ثمةَ الشجرةُ والبارجة
ملاءةُ مريمَ والبارجة
والمساءُ وحيدٌ مع البارجة.
أهي التي تسللتْ من شيربورغ في مساءٍ ما

لتخترقَ مضيقَ جبلِ طارقٍ أمامَ عيني ملكٍ عربيّ؟
المساءُ أحمرُ. . . أهو سحابةُ دانتي؟
أريدُ أن أراكِ هذا المساء. . .
للثلاثين قنبلةً في الدقيقةْ
للبيوت التي تنكفئْ
للعيونِ التي تترصّدُ أو تنطفئْ
للقبور التي نُثِّرتْ
للشجيراتِ مخنوقةً بالرمادْ
للمخيمِ مستفرَداً كالبلادْ:
نرسم الدائرةْ
نرسم الأُمّةَ العاثرةْ
ثم نُدخلها في هواءِ الخنادقْ.

بيروت، ١٥/ ٧/ ١٩٨٢

مريم تأتي...

«١»

وللحظةٍ غمرتْكَ بالقبلاتِ
ثم نأتْ متوجةً بخُوصٍ أبيضٍ.
في أي نهرٍ سوفَ تنغمسُ الأناملُ؟
أيُّ ماءٍ سوف يبتلُّ القميصُ بهِ؟
وأيةُ نخلةٍ ستكونُ مُتّكأً؟
وهل يَسَّاقطُ الرُطَبُ الجَنِيُّ؟
أكان جِذعُ النخلةِ المهتزُّ أقصى ما تحاولُ مريمُ؟
الأشجارُ موسيقى،
وهذي الشقّةُ البيضاءُ في بيروتَ ما زالتْ أمامَ البحرِ
تخفقُ في البعيدِ مدينةٌ مائيةٌ أخرى
وألمحُ وجه جَدّي: زرقةَ العينين، والكوفيةَ الحمراءَ
ألمحُ في الحواجزِ وجهَ مريمَ،
في المَحاورِ خطوةَ الملكِ المتوّجِ بالقذيفةِ
يدخلُ الرومانُ منتظمين كردوساً،
وقوميون يقتتلون في الدكانِ.

مريمُ في مدينتها،
وأنتَ تراقبُ الطرقَ البعيدةَ: هل تجيءُ اليومَ؟
كانت عندَ مزبلةِ الرصيفِ
وأوقدتْ نيرانَها،
ومضتْ متوجةً بأدخنةٍ،
تباركتِ المدينةْ.

لهفي عليكَ وأنتَ مشتعلُ
في الليلِ خلفَ الساترِ الرملِ
هل كان ينبضُ دونَك الأملُ
أم كانَ يخفقُ منتأى الخيلِ؟
كلما جئتُ بيتاً تذكرتُ بيتاً
كلما كنتُ حيّاً تناسيتُ ميْتاً
غير أن الذي جئتُهُ
غير أن الذي كنتُهُ
لم يعدْ لي
لم يعدْ غيرَ ظِلّ
وليكنْ!
إن ظلاً يصيرْ
خيرُ ما يُرتجى في ظلام المسيرْ

«٢»

لو كنتُ أعرفُ أين مريمُ
لاتّبعتُ النجمَ نحو بلادِها،
لكنّ مريمَ خلّفتني في المتاهةِ منذُ أن رحلتْ
وقالتْ: سوفَ تلقاني إذا أحببتَني.
في الرملِ أبحثُ عن أناملها
وفي أطلال «عينِ الحلوةِ» السوداءِ عن عينينِ،
في باب «الوكالة» أسألُ الشبّانَ: هل مرّتْ؟
وبين صحيفةٍ وصحيفةٍ أتسقّطُ الأنباءَ
في المذياعِ، أمسِ، سمعتُ صوتاً: صوتَ مريمَ؟
أم تراها تسكن الطلقاتِ
بين الليلكيّ وبين حيّ السلّمِ المنخوبِ؟
بيروتُ التي استندتْ إلى أحجارها
فزّتْ كطير البحرِ،
والعشاقُ يمتشقون رشاشاتِهم
والبحرُ يهدأُ
يُنصتُ الأطفالُ للصوتِ المباغتِ...
في البعيدِ حرائقٌ،
والطائراتُ تدورُ في أفقٍ رصاصيٍّ
لكِ العشاقُ والطلقاتُ... مريمُ
تدخلينَ، إذن؟
تعالَي...

هذا الفضاءُ نظلُّ نطرقهُ
حتى نرى في الوحشةِ العَلَما
حتى يدورَ الطيرُ نُطلِقُهُ
نحو النجومِ ليطلقَ القَسَما
في البراري فلسطينُ، في قبّراتِ المخابئْ
في الرصاصِ الكثيفِ
وفي صيحةِ الراجمةْ
في الأغاني فلسطينُ، في الخصلةِ الفاحمةْ
في قميصِ الشهيدْ
في حديدٍ يردُّ الحديدْ

في يدٍ
في زنادْ
في اقترابِ البلادْ

«٣»

ها نحن، مريمُ، نرسمُ الطرقاتِ في الليلِ الملبّدِ
نرصدُ الطلقاتِ تتبعُنا
ونقفزُ مثل عصفورينِ مذعورينِ بين قديفةٍ وقذيفةٍ
ها نحنُ، مريمُ، نهبطُ الدرجاتِ نحوَ الملجأ الليليّ،
نحصي الطائراتِ مغيرةً
ونقولُ: آمَنّا . . .

ونمشي، خِلسةً، للبحرِ
نجلس خلفَ أكياسِ الترابِ
ونرقبُ الأمواجَ تهدرُ، والشباب مقاتلينَ. . .
ثيابُهم مخضّرةٌ كالصخرِ عند شواطئِ المتوسطِ
انتطري قليلاً، كي نقول لهم: سلاماً
كي نباركَ بالدموعِ سلاحَهم
كي نمسحَ الخصلاتِ بالماءِ القليلِ
ونمضغَ الخبزَ المجففَ صامتينَ. . .

ومريمُ، المرآةُ والرؤيا،
بشارةُ أن نموتَ ممجّدينَ
وأن نعيشَ كما يعيش الرِفقةُ البسطاءُ
مريمُ تسكنُ الميلادَ
تسكن في الدمِ العربيّ
نتبعُها، وتتبعُنا
ولكنّا، هنا، في قسوةِ اللحظات
ننسجُ من عباءتها هويتَنا
وندخلُ في القيامةْ

في الموقع الحجريّ رايتُنا
مغروزةٌ في وقفةِ الزمنِ

سنظل نغرزُها ونغرزُها
حتى نفجّرَ نبعةَ الوطن.

وليكنْ ما يكونْ
وليكنْ أن يجيء الجنونْ
وليكنْ...
إننا القادمونْ

بيروت، ٢٥/ ٧/ ١٩٨٢

لمسات يوميّة

ماء...

تشربُ القبّرةْ
يشربُ النجمُ
والبحرُ يشربُ
والطيرُ
والنبتةُ المنزليةُ تشربُ
لكنّ أطفالَ «صبرا»
يشربونَ دخانَ القذائفْ

بيروت، ٢٨/ ٧/ ١٩٨٢

غرفة

ليس فيها سوى مكتبةْ
وسريرٍ
وملصقْ.
جاءت الطائرةْ
حملتْ في الهواءِ السريرْ
والكتابَ الأخيرْ
وخطّتْ بصاروخِها بعضَ مُلصقْ

١٩٨٢/٧/٢٨

الكهرباء

فجأةً نتذكرُ ليلَ القرى
والبساتينَ
والنومَ في الثامنةْ
فجأةً نتعلمُ فائدةَ الفجرِ
نسمعُ صوتَ المؤذّنِ
والديكِ
والقريةِ الآمنةْ

٢٨/ ٧/ ١٩٨٢

موقع

ربما كان بيتاً لتاجرْ
أو لأرملةٍ مرحةْ
ربما كان في ذكرياتِ المسافرْ
غير أنّ المنازلْ
أقبلتْ هكذا في ثيابِ المقاتلْ
نصبتْ ساتراً
واختفتْ. . .

٢٨/ ٧/ ١٩٨٢

أين؟

أين يذهبُ هذا الفتى
في المساءِ العجيب؟
زمزميةٌ ماءٍ
وقنبلةٌ في الحزامِ العريض
والسلاحُ الذي لا يفارِقُ. . .
هل يقصدُ البحرَ؟
آهٍ لهذا الفتى. . .

١٩٨٢/٧/٢٨

إذاعة

في الخرائبِ، أو في القصورْ
ينتقلُ مذياعُنا
بين أكوابِ شايٍ تدورْ
وانفجارٍ هنا أو هنا
قد نغنّي قليلاً
قد نُمنّي قليلاً
ولكنْ مذياعَنا مثُل بوقِ النشورْ

٢٨/ ٧/ ١٩٨٢

مخصص

ما الذي نشتري بالمخصصْ؟
نكتي بقميصٍ وحيدٍ
بـ «جينزٍ» قديمٍ
ونصفِ رغيفٍ وجبنةْ
وبالزهر نقطفُه من وراءِ السياجْ. . .
ما الذي نشتري بالمخصص؟
ربما لحظةَ الاندماجْ. . .

٢٨/ ٧/ ١٩٨٢

مدافع

تهدرُ المدفعيةُ في الفجرِ،
والبحرُ يلتفُّ حولَ المدينةِ مثلَ الدخانْ
تهدرُ المدفعيةُ في الفجرِ،
والطيرُ يفزعُ . . .
هل جاءتِ الطائراتُ؟
وفي الشقّةِ الخاليةْ
يصمتُ النبتُ
ترتعشُ الآنيةْ

١٩٨٢/٨/٤

نشور

الطفلُ الميّتُ من ظمأٍ
في المستشفى المظلمْ
دفنوه سريعاً
ومضَوا مرتبكين
وها هو يفتحُ عينيهِ الذابلتين
يفتح عينيهِ الواسعتين
ويحفرُ
يحفرُ في الأرضِ عميقاً.

٤/٨/١٩٨٢

مساكن

أيّ طوابقَ يعشقُها الصاروخُ
وأيّ طوابقَ نعشقُها
أيّ طوابقَ نسكنها؟
للقطةِ أن تمرحَ في السطحِ
وللطفلةِ أن تصرخَ في الملجأْ
ولنا أن نرتقبَ اللحظةَ
مسكونين

١٩٨٢/٨/٤

شهداء عراقيون

كانوا أربعةً في «حيّ السلّم»
قنّاصي دباباتٍ
ورواةَ قصائدْ
كانوا عشاقاً لفلسطينَ
رفاقاً في بغدادَ
وأمسَوا أشجاراً في «حيّ السلّم»
أربعةً كانوا في «حيّ السلّم»

١٩٨٢/٨/٥

ريلكه

مرتبكاً
يبحث عن مريمَ في حديقةٍ
أو في صبيّةٍ بالمنزلِ الآخرِ
أو عبرَ مسافاتٍ بلا نجمٍ،
وريلكه
شاحباً
منتظراً
بردانَ
يستأني على الشرفة تلك الخطوةَ الأولى
ترى. . . هل أقبلتْ مريمُ؟
كان البحرُ في الشرفةِ
والوردةُ تبتلُّ
وعيناه على نافذةٍ بالمنزلِ الآخر

بيروت، ٤/ ٦/ ١٩٨٢

سهاد

أريدُ أن أنامَ حتى يعلوَ البحرُ بساطَ الغرفةِ البيضاءْ
أريدُ أن تبتعدَ الأشياءْ
أريدُ أن أنامَ: لا ذكرى ولا نسيانْ
أريدُ أن يهدأَ نبضٌ في جبيني، أن يغطيني سكونُ الماءْ
مجمرةٌ في آخر الغرفةِ
ضوعٌ من بخورٍ ساحليٍّ.
وجهُها يصغرُ..
عيناي تغيمانِ
ويعلو البحرْ...

١٩٨٢/٦/٥

غارة...

ترتجفُ الغرفةُ من قذائف بعيدةٍ
ترتجفُ الستائرْ
ومرةً يرتجفُ القلبُ. . .
لماذا أنت في الرجفةْ؟

١٩٨٢/٦/٥

انهاك

مثل جوادينِ
انطلقْنا، هكذا، نحو تخومِ الأرضْ
ثم سقطْنا،
دون أن ندري
كما يسقطُ ظِلُ الشمسِ
في زاويةِ الغرفةْ

١٩٨٢/٦/٥

ثمل

اعتذرُ الليلةَ، عن كلِ الذي أحببتُ في غرفتها
عن نبتةِ الشرفةِ
عن مكتبةِ الحائطِ
عن عشرِ مرايا تتوازى في بساطٍ بدويٍّ
أسطوانةٌ تدورُ في البحر قريباً
هذه الفودكا التي تشربني في لحظةٍ
كم كانت الساعةُ؟
من وسَّدَني الغيمةَ؟
من خبّأَ في صدرِ قميصي طائراً؟
لكنني أعتذرُ الليلة عن كلِ الذي أحببتُ
عن كلِ الذي ارتكبتُ في غرفتها. . .

١٩٨٢/٦/٣

زرقة

أُمسِكُ أحياناً، بصوتٍ خافتٍ
يأتي شريداً، وردةَ اللحظةِ . . .
ما أبعدَ هذا البابَ والكرسيَّ والتمثالَ
والهاتفَ، والسيارةَ الملقاةَ في زاويةِ الشارعِ
هذي المرأةُ الزرقاءُ
ما أهدأَها في الوردةِ ـ اللحظةِ
تلتمُّ على صوتٍ
وتَخْفى فيه
حتى يتلاشى الصوتُ في لحظةْ .

١٩٨٢/٦/٤

صمت

في الصمتِ يأتي المطرُ الآخرْ
في الصمتِ تأتي دورةُ الأعشابْ
في الصمتِ يأتي العسلُ الأوّلْ
في الصمتِ أُصغي لنبيذٍ لاذعٍ
ينزُّ في الهدأةِ من جِلدي. . . وئيداً
مُفعِماً أوردةَ المرأةْ.

١٩٨٢/٦/٦

براءة

عندما نتداخلُ في شرفةٍ
أو سريرْ
عندما نتدخلُ في لحظةٍ مرهقة
عندما نجدُ الأقنعةْ
كالثيابِ التي نتنازعُ
أو كالثيابِ التي ننزعُ الآنَ قربَ السريرْ
عندما يدخلُ الوقتُ مثلَ الحريرْ
في الأصابيعِ . . .
أسألُ نفسي قليلاً
وأنسى قليلاً
وأأسى قليلاً
ولكنني قد أقولُ: أحبكِ. . . .

بيروت، ٦/ ٧/ ١٩٨٢

خذ وردة الثلج
خذ القيروانية

(١٩٨٧)

الوردة

لي وردةٌ بيديكَ
قد أحببتُها، حتى بلغتُ منازلَ العشاقِ
لكن الحبيبةَ سوف تبقى في يديك.

لي وردةٌ في الروحِ
كم غنيتُها، حتى غدوتُ مغنيَ الطرقاتِ
لكن الأغاني سوف تبقى في يديك.

لي وردةٌ في الأرضِ
كم حاولتُها، حتى بلغتُ مواقعَ الثوار
لكن المواقعَ سوف تبقى في يديك.

❊

قل إنها تذوي
وقل إن الرمالَ تدورُ حولَكَ
والثلوجَ تحاصرُ الطرقَ البعيدةَ
والنساءَ يَنُحنَ
والأبناءَ يضطربون في الآفاقِ

قُلْ إن السماءَ تضيقُ أيضاً
إن خبزَ الأهلِ مرٌّ
إن متراسَ الفقيرِ الفقرُ
قل يا أيها الملكُ المتوَّجُ بالشظيّةِ ما تقول. .
لكنني أدرى بما خبّأتَ تحتَ الجلدِ
أدرى بالذي تنوي إذا ما أسودّت الآفاقُ
وانقطعتْ بك الطرقاتُ:
تذهبُ للبدايةِ من نهايتها
وتقولُ للعشاق: هذي وردتي الأولى
لنضفرْها على خصلاتِ قنبلةٍ
لندخلْ في النهايةْ. . .

دمشق، ٢٥/ ١/ ١٩٨٣

مشاهدات

اسمعُ إطلاقاتِ رشاشٍ.
هو البحرُ الذي يصطخبُ الليلةَ مثلَ الريحِ
تأتي شجراتٌ مستسراتٌ بأصدافٍ وموسيقى هواةٍ.
ليلةٌ مقليةٌ بالملحِ والسمسمِ.
أمسِ افتتحوا زنزانةً في مكتبِ المنفى.
الصراصيرُ على أغلفةٍ مغبّرةٍ
والبابُ صحراءُ.
تغني امرأةٌ تهبطُ في البحرِ:
«لماذا كانت الساحاتُ؟
هل نستنفرُ المتراسَ في زهرةِ آسٍ؟
أيها الأحبابُ
ما أجملَ أن نمضي، وما أتعسَ أن نُغضي».
تغني امرأةٌ تغرقُ في زنزانةِ المنفى:
«رأيتُ الموتَ أهونَ
كنتُ أبكي
والصراصيرُ ارتدتْ قمصانَ عينِ الشمس...

يا عيني على بغداد
يا عيني على من عاد
يا عيني على جبلٍ تدورُ بثلجه الأورادُ»

إطلاقاتُ رشاشٍ

وندخلُ مسرعينَ سفينةَ الغرباء.
إرهابيةٌ في خبزةٍ سكنتْ
ودرويشٌ يراقبُ نجمةً في الشرقِ
بيتٌ من دروعِ سلاحفٍ
مَن هذه المجلوّةُ البيضاءُ كالمرآة؟
مَن هذا الذي يستنزلُ الراياتِ؟
تأتي موجةٌ صغرى فأتبعُها
وتأتي موجةٌ كبرى فأسألُها
وتأتي من أُحبُّ...
سفينةُ الغرباءِ بين اللَّهِ والمتوسطِ.
انفتحتْ زجاجة دُمّلٍ.
لم تبقَ عاصمةٌ بعيدةْ.
ما أضيقَ الدنيا إذا أمّحت المسالكُ.
أنتِ ترتجفين في فجرٍ رماديٍّ.
وما بين الثيابِ العسكريةِ والنبيذِ المزّ
كلُ متاعبِ السنواتِ.

حاولْنا محاورةً
وحاولْنا مغامرةً
وآمنّا بأن الكونَ أيضاً بذرةٌ.
ونموتُ...

إطلاقاتُ رشاشٍ

فضاءٌ لا فضاءَ له
وكان رصاصُنا يصطَكُّ من سقفٍ، إلى سقفٍ متاحٍ
هل تكونُ رصاصةُ الغيتو إذن؟
لكنها خرساءُ...
(صيادون عادوا الآن
ملتحفينَ بالأسماكِ والقاتِ المكابرِ.
للنوارسِ صرخةٌ مكتوبةٌ.
طابورُ عشاقٍ على مستودعِ التثليج.
تأتي قطرةُ المطرِ الوحيدةُ في جبينك
لم يعد بحّارةٌ في دكّةِ البحرِ القديمِ
أأنت تقصدُ دكةً أخرى؟)
فضاءٌ لا فضاءَ لهُ
وكونٌ ـ بذرةٌ أيضاً
ومعتقلونَ في زنزانةِ المنفى
وكونٌ ـ بذرةٌ أيضاً

وخصلةُ شعرها انكسرتْ مع المرفا
وكونٌ ـ بذرةٌ أيضاً. . .

يئسنا من قوانينِ البذار
فَقُلْ لنا يا بحرُ:
كيف نروّض الأرضا؟

عدن، ٥/ ٢/ ١٩٨٣

موقع

الذي كانَ يأكلُ في القبوِ بين القذائفِ مركونةً
والذي يمسحُ الزيتَ عن بندقيتهِ
والذي جاءَ في الليلِ من شجرِ «الناعمةْ»
والذي ظلَّ يعلكُ أزرارَ سُترتهِ حينَ أقبلتِ الطائراتْ
والذي يتمنّى إجازةَ حُبٍّ سريعةْ
والذي لا يحبُّ الكلام
والذي فرّ من أمه كي يقاتلْ
والذي كاد يسرقُ دبابةً
والذي يكمنُ الآن قربَ المنارة
والذي قال لي: لن أودعَكم بالرصاصِ الأخير
والذي فجَّرَ الشاحنةْ
والذي كان يمنحني خبزَ تموينهِ
والذي
والذي
.....
.....

هؤلاء
أين أمضي بهم
في مساءٍ كهذا المساء؟

دمشق، ٢٠/ ٤/ ١٩٨٣

هدوء

قبل أن نبتني في فضاء الذهولِ
غيوماً رماديةً
وجبالاً رماداً
وبحرا،
قبل أن نغتني بمسرةِ أن نحفظَ السرَّ
أو نكتفي بالتساؤلِ:
هل كانتِ الأرضُ نصفينِ
أم أنها البرتقالةْ؟
قبل هذا سندخلُ في غايةِ الانعكاسات
حيثُ المياهُ العميقةُ مغمورةٌ بمياهِ السواحلِ
بالنسوةِ الباحثاتِ عن العشبِ
بالقادةِ القانعين.

*

ثم ماذا؟
إذا كان للنيزك اسمانِ
هل تَبْرُقُ المسألةْ؟

دمشق، ١٨/ ٤/ ١٩٨٣

تمرد

من زجاجِ المكاتبِ
تستكشفُ الفتياتُ الملولاتُ عشاقَهنّ.
الضحى نافرٌ
والمياهُ اختلتْ بالمدينةِ
والشجرُ النائمُ استيقظَ الآنَ
تأتي الضواحي
بأفراسها . . .
اللوزُ أخضرُ
والباص أخضرُ
والنسمات الخفيفة خضراءُ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في لحظةٍ
تقفزُ الفتياتُ الملولاتُ
عبرَ زجاجِ المكاتبْ.

دمشق، ٢٠/ ٤/ ١٩٨٣

البستان

نفرش أنفسَنا عند النهرِ
ونجلسُ
ننصتُ للحورياتِ يلاعبن الأسماكَ
ونسمعُ كالبوقِ دبيبَ النملِ
ونهجسُ كيف يمدُّ الجذرُ أصابعَهُ مترعةً بالماء
وكيف تدورُ الشمسُ بأوردةِ الورقةْ

❊

نفرشُ أنفسَنا عند النهرِ
ونرقدُ
تأتي الحورياتُ وينظرنَ إلينا
يأتي النملُ
ويأتي الجذرُ
وتأتي الشمسُ
ويمتلئُ الجسدُ الغافي باللمسات.

❊

نطوي أنفسَنا في المقهى
نجلسُ
لكنْ. . . هل ندركُ ذاكَ البستان؟

دمشق، ٢٠/ ٤/ ١٩٨٣

تركة

قطرةٌ واحدةْ
قطرةٌ ثم أخرى
قطراتٌ طوالٌ على هذه النافذةْ
كنقاطِ التعجبْ. . .
بعد حينٍ يغادرُ نيسانُ
محتملاً، مثلَ رحّالةٍ، روحَهُ وروائحَهُ
تاركاً للغبارِ نقاطَ التعجبْ
تاركاً لي البقاء

دمشق، ١٨/ ٤/ ١٩٨٣

الانجراف (١)

«إلى معين بسيسو»

بيننا الشَعرُ أبيضَ
والعمرُ أحمرَ
والأرضُ سوداءَ،
ما بيننا البندقيةُ
نكسرُها، أو نلوذُ بها، مثل رضّاعةِ الطفلِ،
هذا الهواءُ
الزجاجُ ـ الهشيمُ الذي نتنفّسُ،
هذي البراءةُ تدخلُ، والماءَ، قمصانَنا
ثم تَبرقُ في العينِ كالنصلِ. . .
ليست مصادفةً أن يدورَ الحصا والحصا
أن يدورَ الحصا والمياه
أن تدورَ المياهُ المياه. . .
فهل كنتَ تعرفُ؟
هل كنتَ تعرفُ ما يبتغيه اليمامْ
وما يعتليه الحسامْ؟

فلتقلْ يا معينْ
كيف مرّ الزمانُ الضنينْ؟

❋

أتكونُ عزةُ في غضونِ يديك
عزّةَ هاشمٍ،
أم شارعاً يتظاهر الطلابُ والشعراءُ فيه،
أم الجنودُ وقد أتَوا بخرافةِ الصحراءِ
يندفعونَ خلفَ بنادقٍ
لم تَعرفِ الطلقاتِ إلا في صدور الموج؟
فوجٌ مدرسيٌّ يحمل الأحلامَ آنيةً
كآنية البيوتِ
وأنتَ في النبض الذي يُنسى ولا يُنسى
فهذا النبضْ
نعتاده كالأرضْ
نقتاتُه كالأرضْ
نعيا بهِ
نحيا بهِ
كالأرضْ...

❋

بيننا، يا معينُ، البلادْ
بيننا، يا معينُ، البلادُ البعيدهْ
بيننا، يا معينُ، البلادُ البعيدةُ عن قصبِ الدغْلِ

عن نسمةٍ تتخلخلُ
أو تتغلغلُ
أو تمنحُ القصباتِ الأنينْ. . .
هل تكون، إذن، صوتَها؟
هل تكون لها القصبَ المترنحَ والريحَ
هل تغتذي نُسغَها
بالأنينْ؟
فلتقلْ يا معينْ
كيف مرّ الزمانُ ـ الأنينْ؟

*

وتقولُ: أقصدُ مصرَ.
كانت مصرُ بين يديكَ، لكنْ عبرَ زنزاناتها
حتى إذا حاولتَها حيناً ولهتَ بها
فكانت مصرُ بين يديكَ ثانيةً
ولكنْ عبر أحداقٍ رأيتَ بها نوافذَكَ الأليفةَ. . .
بحرك المكتظُّ بالغزلانِ
رايتَكَ التي نبتتْ بآنيةٍ من الفخّارِ
أو خُطّتْ على البرديّ
أو حَطّتْ على المنشورْ. . .
وتظل تقصدُ مصرَ،
كلُ الأرض مصرُ

وكلُ مصرَ الأرضُ:
ذاك ظلامُها والنورْ.

❊

بيننا، يا معينُ، الفراتْ
قل له يتمهلْ قليلاً
قل له أن يردَّ السلامْ
قلْ له إن ريش الحمامْ
صار سجّادةً للإمام المسلَّحِ
أو خوذةً للظلامْ
بيننا، يا معينُ، الفراتْ
أنتَ سمّيتَهُ بعضَ أسمائِه
كنتَ من مائهِ
كنتَ في مائهِ
إذ أقمنا الصلاة...
بيننا، يا معينُ، الفراتْ.

❊

سأظل أذكرُ كيف كنتَ تلاحقُ الأنقاضَ في بيروتَ
تحفرُ في مساءٍ ضيّقٍ ينبوعَكَ الحجريَّ.
ما جاءتْ إليك سفينةُ الأنصارِ حاملةً مدافعَها،
ولم تتخافقِ الراياتُ حين سألتَها أن تُطْلقَ الوردهْ
كانوا لأوراق البريد، وكنتَ للوردهْ...
وأظل أذكرُ كيف فزّتْ نجمةٌ، وهوتْ

وكنتَ تقولُ: ما زلنا. . .
أليست نجمتي في شرفتي؟
لكنه، هذا الرماديُّ الذي كم كنتَ تنعتُهُ
الرماديُّ الذي كم كنتَ تمقتهُ. . .
الرماديُّ الذي كم كنتَ تلقاهُ.

*

لن تكونَ سماءَكَ بيروتُ
أنت الذي ما أقمتَ بها غيرَ بوّابةٍ للخطرْ
موقعاً واجهَ البحرَ
معترضاً، كالعُبُوَّةِ، عاداتِنا
واستهاناتِنا.
منزلاً من حجرْ
كنتَ ترمي النعوماتِ عن شاهقٍ فيهِ
حتى تُهشمَها
فتلُمَّ الحصا
وتعيدَ النشيدَ إلى قعقعاتِ الحجرْ.

*

ليكنْ إذنْ. . .
ولننجرفْ في الكونِ:
ـ ضوءٌ أوّلٌ يفضي إلى غَسقٍ.
ـ وماذا؟
أيَّ تيجانٍ سنخسرُ؟

نحن لم نمسكْ بهذا الكون من قرنيهِ
لم نخلقه من تفصيلِ صورتنا وصخرتنا
ولكنا أتينا مثلما تأتي العناصرُ . . .
وليكنْ !
ولننجرفْ في الكونِ،
من يدري . . .
لعلَّ عناصراً ستجِدُّ .
من يدري . . .
لعلّ هناك ضوءاً أوّلاً يفضي إلى الضوء الأخيرْ .

❋

بيننا، يا معينُ، المصير . . .

مطار الكويت، ١٩/ ٤/ ١٩٨٤

عن تلك السحلية
عن هذا الليل...

في هذي الليلةِ لا يبلغُ حتى البحرُ الشبّاك
لا يبلغُ صوتُ البحرْ
حتى صندوقاً خشباً ينتظرُ التفريغ على الشاطئ
هل أسمعُ صوتَ الريح
أم أسمعُ صوتَ الصرخةِ في زهرةِ ليمونٍ تصفرُّ؟
رأيتُ الشجرَ الواقفَ
ينتظرُ امرأةً صبغتْ فَخِذَيها بالأخضرِ. . .
من يأتي في هذي الليلةِ؟
من يأتي في هذي الدعوةِ؟
لا . . . لا تأتي
لا تأتي. . .
فالبحرُ العابرُ من شبّاكي لا يأتي
والنهرُ الغائرُ في أظفاري لا يأتي
(دمُهُ يتخثرُ
مثلَ هواءِ الخليجِ
الذي يتخثرُ في قوقعةْ)

فلماذا تأتين؟
ولماذا أنتظرُ الآتينْ؟

❊

هذي الليلةَ
أُرسلُ خمسَ بطاقاتٍ للسرطانِ الرمليّ
أرسلُ أزهارَ الميموزا للأفعى
أرسلُ قوّادينَ إلى الجنةِ
أرسلُ أغشيةً مانعةً للحمل إلى القديسين
وأرسلُ أبنائي لعرائسِ بحرٍ مقتولات
(أعطني أيها اللَّهُ
ما شئتَ أن تصنعَهْ
أعطني الزوبعةْ)

❊

هذي الليلةَ لا تأتي
سأقولُ: «أحبكِ»، لكنْ لا تأتي
يا ـ لا ـ ئـ ـ مي ـ يا ـ لا ـ ئـ ـ مي ـ لا
يا ـ لا ـ ئـ ـ مي ـ يا ـ لا ـ ئـ ـ مي ـ لا
هذي الليلةَ
أستأجرُ شقتَها لحظاتٍ
وأسافرُ عنها
أتركُ تحتَ وسادتيَ القطنِ
مسدسَ ماغنومَ

وسبعَ رصاصاتٍ
أتركُ إطلاقاتٍ للتنويرِ
وحبّاتٍ من عَرَقٍ ليليٍّ
أتركُ بستاناً في أكرةِ باب الشقةِ
ثم أسيرُ إلى كاتمندو. . .
في كاتمندو أجلسُ في حلقات البوذيينْ
ألمسُ ضوءاً أوّلَ تحت غصون التينْ
وأدخّنُ سَبعَ سجائر
وأقولُ: لعلكِ تأتينْ. . .
(لن أقول: سأمضي معهْ)

*

سأسيرُ إلى تمبكتو
أجلسُ مسكوناً عند رواق الطين
وأشربُ ماءَ ملائكةٍ في جرةِ يقطينْ
وأقولُ: لعلكِ تأتينْ
(هل أظل إلى أن أموت
أتبعُ الأشرعةْ؟)

*

سأسيرُ إلى بغدادْ
أجلسُ عند النهر قليلا
وأدورُ بـ «باب الشيخ» قليلا
وأغادرُ بغداد خفيفَ الزادْ

. . . . . .

. . . . . .

(آخرُ الزوبعهْ؟

أولُ الزوبعهْ؟)

*

سأسيرُ إلى القدسِ

وأدوّنُ أسماءكِ

أسمائي

أحفرُها في أحجار السورْ

وأبسطُ كفّيَّ بحفنة قمحٍ لحمامٍ مذعورْ

وأمرُّ على نفسي

وأقولُ: لعلكِ تأتينْ. . .

هل ـ لي ـ لو ـ يا

هل ـ لي ـ لو ـ يا.

عدن، ٣٠/ ٨/ ١٩٨٤

إعلان سياحي عن «حاج عمران»(*)

(*) «حاج عمران» منطقة في كردستان العراق احتلتها القوات الإيرانية مؤخراً.

مَقَدونيون في منعطف النيسم
أو خيّالةٌ روسٌ يجرّون بغالاً
أو رعاةُ الماعزِ الماكرِ يمضون برشّاشاتهم والجبنةِ البيضاء. . .

هل أشعلَها عبدُ السلام البارازاني كما يشعلُ عودَ التبغ؟
لا تتركُ راوندوزُ إلا حسرةً مدبوغةً بالجوز في الكفّينِ
أيُّ الشجراتِ استنطقتْ للنقشبنديين نجمَ القطبِ؟

يأتي المقدونيون
تأتي قامةُ الإسكندرِ المُثلى
ويأتي الروس

يأتي البارازانيون
يأتي الإنجليزيّ
وتأتي طبقاتُ الأرض
يأتي الشاه
يأتي مدفعيونَ وضباطُ صواريخٍ.

ويأتي جنرالٌ من وراءِ البحرِ
تأتي امرأةٌ تبحثُ عن أبنائها. . .
(في هذه الزاويةِ ـ التيهِ من العالمِ صارت سُفنُ العالمِ أحجاراً، وفي الزاوية ـ التيهِ أقامَ المجلسُ القوميُّ للأحقاد بستاناً من الأحجارِ والبارودِ. برقٌ من وراءِ النهرِ. وردٌ من بخارى. سبُحةٌ من «قُمَّ». وجهٌ أرمنيٌّ. هدأتْ أمواجُ «فانَ». ارتجف الناقوسُ في الهدأةِ. سريانٌ. يزيديون. عنفٌ تركمانيٌّ. وفلاحون من آشورَ. ما أحلى نبيذَ القريةِ. الأنصارُ في كهفٍ. وبوب دينار في الميراج ٢٠٠٠).

يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
بلاداً لم تكد تُعلنُ عن خارطةٍ للضوءِ حتى انطفأتْ مئذنةُ القادمِ من سومرَ أو سورِ «الرَّها». . . أيةُ هللينيةٍ بيضاءَ ـ سمراءَ أقامت مشغلاً للخمرِ والفخّارِ؟ من أولِ حاجّ عمرانَ حتى أولِ البحرِ أقامت مدناً. . .
(حين مات الإسكندر كانت ثلاثمائة بلدةٍ ومدينةٍ في بلاد ما بين النهرين تحمل اسمَه).
يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
بلاداً مُرّةً، تافهةَ الحكّامِ. . .
(كان المقتدرْ

كلما شاغبه العامةُ
أعطى جندَه الأموالَ
حتى أكلوه). . .

ـ في سنة ٣٢٠هـ قُتل المقتدرُ، إذ اشتدتْ ثورةُ العامة في بغدادَ. ففي محرم انتهبوا دارَ الوزير واصطبلَهُ. وفي جادى الأولى اجتمع أهلُ الثغورِ والجبالِ إلى دارِ السلطانِ واستنفروا الناسَ ببغدادَ، وذكروا ما ينالُهم من الدَيلمِ والرومِ، وأن الخَراجَ إنما يؤخذُ منهم ومن غيرِهم ليُصانَ به عامةُ الناسِ ويُدفعَ عدوهُم عنهم، فثارَ الناسُ معهم، وساروا إلى الجامعِ بمدينةِ المنصورِ، وكسروا درابزينَ المقصورةِ وأعوادَ المنبرِ، ومنعوا الخطبةَ وضربوا الخطيبَ لأنه يدعو لرجلٍ لا ينظرُ في أمورِ المسلمينَ قد اشتغلَ بالغناءِ والزنا عن النظرِ في أمورِ الحرمينِ والثغورِ. وفي جمادى الآخرةِ سوّدَ الهاشميونَ وجوهَهُم، وانتشروا في الطرقِ يطالبونَ بأرزاقهم، وصاحوا: الجوعَ الجوعَ. واشتدَّ تهيجُ العامةِ، وحملوا أصنافَ الحديدِ ـ

يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين

ارتعى أعشابكِ الفَجةَ أطفالُ «نصيبين». ونامت وردةُ الكلدانِ في قدّاسِها المنسيّ. . . هل تحملُها النسوةُ في أحشائهنّ؟ انتبهي يا وردةً مسقيةً بالنهر والبحرِ. أردنا مرةً أن نصبحَ التاريخَ. لكنّا انتظرنا. . . ثم مرَّ الصبحُ والتاريخُ. مرّ الرومُ والديلمُ. بيزنطةُ أو مكةُ. والحلاجُ والحجاجُ. من يوقظُ في هذي السباخِ الوردةَ

الأولى؟ وهل نقدرُ أن نزْرقَ في آجرّ عشتارَ نبيذاً كان في أحداقِ جلجامشَ؟

آهٍ

يا بلاداً بين نهرينِ

بلاداف بين سيفينِ

بلاداً كلما استنفرتِ الأسلافَ دقتْ طبلةُ الأجلافِ. . .

قوميون لم يستنطقوا التاريخَ إلا في قطارِ الموتِ.

بعثيونَ في بحبوحةِ التعذيبِ يقتاتون بالمليونِ ممن قَتلوا

(كان الشيوعيون معصوبين مشدودين كالموتى، وإذ تصحو مع الفجرِ المريضِ مفارزُ الإعدامِ تشتدُ الأغاني.

يا دماً في بابلٍ: ما الفرقُ بين مفارزِ الأعوامِ والإعدام؟

لو كانت يدي كالجذرِ لاستوقفتُ ثيراني مجنحةً، لأوقفتُ الغزاةَ مسمَّرين بسحرِ آلهتي وأبنائي على أسوارِ أوروك). . .

ولكنْ،

يا بلاداً بين نهرين

بلاداً بين سيفين

بلاداً بين حاجْ عمرانَ والبصرةِ

بين القتلِ والثورةِ

كانتْ ساعةُ التوقيتِ أمضى منكِ. . . أمضى من رضا ساعاتِكِ المائيةِ. استسلمتِ للبدو الألى جاؤوا من الأطرافِ، من تلك القرى الملقاةِ بالحرفِ الكبيرِ على خرائطِ عسكريي العالمِ القاسي. العواصمُ عبرَ بحرِ الرومِ كانت تُحكمُ الساعاتِ. والأجلافُ يندفعونَ

من تلك القرى المتوحشاتِ إليكِ. أنتِ البنتُ في تلك الجرارِ السومريةِ. أنتِ، أنتِ، النبتةُ الخزفُ الجميلةُ في الجدارياتِ. أنتِ الماءُ والأسماءُ... لكنّ العواصمَ أحكمتْ توقيتَها... وأتى البداةُ
وأنتِ منهكةٌ
مدمّاةٌ
بلادٌ بين نهرين
بلادٌ بين سيفين
لماذا:

حانةُ البّحارِ. خيلُ الموصلِ. ديانا. وحفرياتُ آشور. ملوكُ «الحضرِ». السريانُ. شقلاوةُ. بابُ الشيخِ. شلالاتُ بيخالَ. سماءُ المنتهى. الزقّورةُ. البرديُّ في الأهوار. فهدٌ. والعشائرُ. واللينينيونَ. والطيارُ في الميغ. وأهلُ الكوفةِ. المنفيُّ في «السلمانِ». والجنديُ في مقهى بسامرّاءَ. والعمالُ في الميناءِ ـ أمسَوا كلُهم في غابةٍ للوحشِ؟
ماذا يفعلُ الأطفالُ في «أوروك»؟ ماذا يرتجي الكاهنُ؟
والعرّافُ؟ والأسرىَ الذين استسلموا للّه بالآلافِ؟
والقتلى؟
أيأتون بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين؟
اقتنتْ أحجارُ كردستانَ ميكانزمَ تدميرِ الربيئةِ
لم تكنْ فيتنامُ بالجغرافيا. في «سواره توكه» كانت العرباتُ وهي تحملُ هاوناتِ الفرقةِ العشرينَ تُجهش كالبغالِ.

يقولُ جنديٌّ احتياطٍ: لستُ أدري كيف لا يتمردُ العرفاءُ؟
أمسِ استسلمتْ إحدى السرايا تحتَ جُنحِ الليلِ.
اخرسْ أيها الجنديُّ. واخرسْ أيها النخلُ الممزقُ بين خرمشهرَ
والأهوازِ. صوتي عمةٌ فقدتْ بنيها. طفلةٌ
تختصُّ في المنفى. وكردستانُ تنأى في مضائقها،
وتسألُنا ديانا عن ديانا...
يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
اشترت بغدادُ قفازاتها من دارِ أزياء بباريس.
ترى هل كان جاك شيراك Monsieur 10%؟
وهذا الاشتراكيُّ الذي يمسحُ بالشمبانيا صاروخَ أكزوسيت؟
أيُ العربِ الأعرابِ في «بواتييه» كانوا السلفَ الصالحَ؟
أيُّ العربِ الأغرابِ في تلك القرى ـ النسيانِ كانوا الاشتراكيين؟
(إني أنصح السيد فرانسوا ميتران رئيس الجمهورية الفرنسية بأن يقرأ قراءةً متأنيةً ـ ولا بأسَ بأن يساعدَهُ ريجيس دوبريه ـ المؤلفاتِ الكاملةَ للحاج خيراللّه طلفاح، المنظّرِ الرسميّ المعتمَدِ في بغداد).
يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
أعادت هذه الأرضُ التي كانت لنا بيتاً ولو يوماً، ممراً للغزاةِ؟
فريسةً أخرى؟ أكان عليكِ أن تجدي لكِ الرجلَ المريضَ ولو بأفدحِ ما وهبتِ؟

عليكِ يا أرضي السلام
عليك، يا أرضُ، السلام. . .

*

«لا أبطالَ لنا ولا حروب/لنا، فقط، ضحايا حالة مقرفة/
يموتون بالقروح/ التي تتفتح تحت أمطار الحقد القاسية/
لا معارك لنا ولا أيام/ كي يسجلها التاريخ في ملحوظة بائخة/
لنا، فقط، أسرى يُقتلون في ليال عمياء/ وحوادث موت
في الظلام/ ولكن حين تقترب الساعة/ وننادي أولئك الذين ماتوا
في سبيل أرضنا/ فإن هؤلاء الذين هم بلا أسماء/ ولا أسلحة/
سيقفون مع المقاتلين الذين يحققون الظفر الأخير».

دنيس بروتوس
شاعر من جنوب أفريقيا

*

مندلي
بعقوبةٌ
بغداد. . .
في ترتيب هللينية العالمِ
كان الطالبُ الإسكندرُ المترعُ من كأسِ أرسطو
يمسحُ البلدانَ بالخيلِ وبالخمرِ
ويبني مدناً يهدمُها من بعدهِ الرهبانُ والضباطُ والبدوُ
وكانت مندلي الدربَ. . .

و«أنا باز» زينوفون: كانت مندلي الدربَ. . .
وخيّالةُ بوديوني: وكانت مندلي الدرب. . .

قره قوينلو آق قوينلو	عبد الكريم قاسم عبد السلام عارف	الأيس الليس
الأمين المأمون	ابن حنبل المعتزلي	الاستخبارات الفرنسية الاستخبارات البريطانية

فُرسٌ وأتراكٌ. وأتراكٌ وأتراكٌ. مماليكٌ وأجنادٌ بويهيون.
أعرابٌ لهذا أو لهذا. سُنَّةٌ. صابئةٌ. شيعةُ آل البيتِ.
عيّارون. كلدانٌ. نساطرةٌ. ملاحدةٌ. بهائيونَ. عُبّادُ شموسٍ.
وحَروريّون. . .
والإسكندرُ المترع من كأس أرسطو جاءنا من مندلي يوماً
وخيّالةُ بوديوني
و«أنا باز» زينوفون.

❊

هولاكو أتى أيضاً. . .

❊

مندلي
بعقوبةٌ
بغداد. . .
قد يعترضُ الضباطُ في الأركان. فالطائرة السمتية، الروسيةُ الآن،
تغطي حاجَ عمرانَ، وبشت آشانْ. . . تغطي مندلي. تبلغ مهرانَ.

وهذي الحرب ليست كحروب الزمنِ الغابرِ
فالحربُ هنا منسيةٌ
منسيةُ الأعوامِ والقتلى
فمن يتذكر القتلى؟
ومن يتذكر الأعوام؟

تذكرها بعض البيانات
التي تصدر في الخارج

والضباطُ في الأركان: نحن هنا نحاربُ في بلاد لم تكنْ يوماً لنا.
بيرمام أم تركيت؟
فليحترقْ شجرُ الأخامصْ
وليحترقْ ماءُ المسيلْ
تكريت باقيةٌ
وبغدادُ السبيلْ.

*

مندلي
بعقوبةٌ
بغداد. . .
والأوراقُ تدخلُ في مهازلها
وبغدادُ القتيلُ هي القتيلْ

*

حرسٌ سويسريٌّ لماري أنطوانيت الذكيةِ
وهي تحرس بيتَ مال المسلمين.

حرسٌ فرنسيٌ لمكة والمدينةْ
حرسٌ أميركيٌ لمن ورثوا بلادَ النيلْ
حرسٌ سعوديٌّ لبغدادَ الرهينةْ
حرسٌ يهوديّ لبيروتَ التي استعصتْ على التفصيلْ
حرسٌ على بيتي
حرس على صوتي
حرس على الخلجان
حرس على التيجانِ من «أبها» إلى «إفرانْ»
حرس على رملِ الجزيرةْ
حرس على كلِ المداراتِ التي تصلُ الجزيرةَ بالجزيرةْ
حرس على كلِ المطاراتِ القريبةِ والبعيدةْ
حرس على حبرِ الجريدةْ
حرس على سجني
حرس على السجّانْ
حرس على الزهرةْ
حرسٌ على تهويمةِ الخمرةْ
حرس على الغصنِ
حرس على وطني
حرسٌ إلهيٌّ لعبد اللَّه، من شرقِ الفراتِ إلى بلادِ النيلْ

❊

ماذا تبقّى؟

ربما في «حاج عمرانٍ» سألنا بعضَنا عن كأسِنا، هذي الذي نحن

انتقيناها، وهيأنا موائدَها الصبيغةَ بالدمِ الوطنيّ. كم كان اليساريون مبتدئينَ! كم كان المغنيّ خافتاً! يتطاولُ البرديّ... والرشّاشُ منكفئٌ، وتلتزُّ الصخورُ ولا بنادق. نحن سلّمْنا لحانا (مجدَ آشورٍ) إلى من ليس يعرفُ كيف ينتفُها. وعلّمناه. علّمناه كيف يكون سيّافاً. وقلنا للصديقِ الكذبةَ السوداءَ. نحن الآن ننتظر انتهاءَ حماقةِ الكأس العجيبةِ. ربما في «حاج عمرانٍ» عرفنا أن هذي الكأسَ باقيةٌ. سيختلفُ السقاةُ، وربما اقتتلوا. سيمضي واحدٌ، ويجيءُ آخرُ... ثم آخرُ، غير أن الكأسَ باقيةٌ. ومن يدري؟ لعلّ قيامةً أخرى ستُعتقنا من التسآلِ.

من يدري؟ لعلّ تعادلاً (من دوننا) يقضي بإيقافِ الوباءِ...
ونحن؟ متّقدون بالأسلاف نحنُ، مهيأون لوردةٍ في الروحِ،
كشّافون مكشوفونَ، جوّابو معابَر...

غير أن الأرضَ أفدحُ

أن عبءَ النيزكِ المنقضِّ أفدحُ،
أن كلَّ رصاصِنا في هذه الأيامِ أضألُ من رصاصةِ بندقيتنا القديمةْ.

فلنرتفعْ في الروحْ
عن يومنا المذبوحْ
ولنعترف مرّةْ

بالدورة المُرّةْ
ولتبدأ الرحلةْ
من عتمة الليلةْ!

أديس أبابا، ١٩/ ٨/ ١٩٨٣

تداخل

أحياناً، حينَ أكونُ بعيداً في البحر
أبصرُ أعشاباً في القاعِ
تدورُ بها مخلوقاتُ اللَّه.
لماذا تمتدُّ يداي إلى أعشابِ البحر
أتُرى ضاقَ بكفيَّ نباتُ البرّ؟

*

كيف ينامُ الطفل؟
(حشيّتُهُ ليفٌ، ووسادتُه نجمةْ)
كيف ينامُ الطفل
وفي الفجرِ المتسللِ بين النخلِ
رأى جملاً يُذبَحُ...
كيف ينامُ الطفل؟

*

تتركني الحورياتُ على الصخرةْ
(سأظلُ أنادي)
تتركني الحوريات
(سأظلُ أحدّقُ في الصخرة)

تتركني الحوريات
(سأنامُ قليلاً لأفيقَ على زهرةْ)

❋

هاجرتُ بلاداً كانت تسكنُها أمي
ومضيتُ مع الطرقات
لا مسمارَ لديّ ولا مزمار
اتنقّلُ في عرباتِ الموتى
وأنامُ قريرَ العينِ بعينِ الإعصار
والآنَ. . .
وقد جمّعتُ على رأسي صندوقَ عجائبَ
هل ترجعُ بي العربات
نحوَ بلادٍ كانت تسكنُها أمي؟

❋

بين عروقِ المرجانْ
تتقافزُ أسماكُ النورْ
لا تقلقْ يا ولدي
لا تُفرحْكَ الأغصان
ولا يحزنْكَ الدَّيجورْ. . .
كتلةُ مرجانٍ في الشرفةْ
وأصابعُ عاقولٍ في القمصانْ.

عدن، ٦/ ٩/ ١٩٨٤

حالة حُمّى

منذُ أيامٍ، وهذي الريحُ ما تنفكُّ تأتيني من البحرِ
طوالَ الّليلِ تهذي هذه الريحُ
وتُهديني سراطينَ
وأسماكَ هُلامٍ
في سلالٍ من حبالِ السفنِ الغرقى
وقمصاناً عليها نَمِرٌ يضحكُ. . . .
طولَ الليلِ تهذي هذه الريحُ
تئنّ الريحُ
قطٌّ يخمشُ البابَ،
ومن تحتِ فراشي أسمعُ الخطوَ. . .
. . . .
. . . .
لماذا انتعلتْ هذي السراطينُ حذاءَ الخيشِ؟
مَن أخبرَها أني هنا تُرعدُني الحُمّى؟
وهذا القطُّ. . .
هل يقفزُ، كالكنغرِ، عبرَ النافذةْ؟

عدن، ٦/ ٩/ ١٩٨٤

موت بحار

السريرُ الذي ما تَمدَّدَ فيه سوى قبلِ يومينِ. . .
ضاعْ
تحتَ هذا الغطاءِ ـ الشراعْ
السريرُ الذي ما تمددَ فيه سوى قبل يومين. . .
أرهَفَ حدَّ الوداعْ.

. . . .

. . . .

بعدَ بضعِ دقائقَ يأتون
تدنو ممرضةٌ
ثم يأتي رجالٌ
(عرائسهُ في الجروفِ العصيّةِ غادرنهُ)
ويُرفَعُ، في لمحةِ البرقِ، هذا الغطاءُ ـ الشراعْ
برهةً. . .
(خفقُ أجنحةٍ)
ثم يرحلُ هذا السريرُ الذي ما تمدَّدَ فيه سوى قبل يومينِ

يرحلُ
منطوياً
كالشراعْ .

عدن، ٧/ ٩/ ١٩٨٤

مساء قائظ

في الهواءِ الذي يتعثرُ بين القواقعِ
أسماكُ طيرٍ قتيلْ
وأسماكُ بحّارةٍ لن يعودوا.
في الهواءِ الروائحُ:
هنديةٌ مشطتْ شَعرَها تحتَ حبلِ الغسيلْ
واحتراقُ سراطينَ تُشوى
ثم هذا القميصُ البليلْ.

عدن، ٧/ ٩/ ١٩٨٤

لعبة ليلية

في بيتي صالةْ
في الصالةِ نافذةٌ
في نافذةِ الصالةِ مشكاةٌ
والمشكاةُ بها مصباحْ
المصباحُ انطفأَ الليلةَ تدريجاً
حتى دفنتني الظلماتْ
والليلةُ أمستْ سنواتْ
أمّا الآن. . . وقد غالبتُ السنوات
فهل أبقى أبداً في الصالةْ؟

١٩٨٤/٩/٨

امرأة

أين أنقلُ خطوي لها الآن؟
في أيّ أرضٍ أراها
وأيَ الشوارعِ أسألُ
أيَّ المدنْ؟
ولو أني اهتديتُ إلى بيتها
(لأقلْ جدلاً)
هل سأضغطُ زراً على الباب؟
كيف أردُّ الجواب؟
وكيفَ أحدّقُ في وجهها
كيف ألمسُ ذاك النبيذَ المرقوقَ بينَ الأصابعِ
كيف سألقي التحيةَ. . .
ألقي عذابَ السنين؟

❊

مرةً
قبلَ عشرينَ عاماً
في القطارِ المكيَّفِ
قبّلتُها الليلَ كلهْ. . .

١٩٨٤/٩/٨

بار جبهة النهر

آخرَ باراتِ البحّارة كانْ
باراً من خشبٍ صَلْدٍ ومعادنَ برّاقةْ
كان يطلُّ على السفنِ البحريةِ في النهرِ
يطلُّ على السفنِ النهريةِ في البحرِ
وآخرَ باراتِ البصرةِ كانْ
في قصرٍ غادرَهُ نبلاءُ النخلِ
إلى أشجارِ النسَبِ الأولى في الصحراء

*

كان وحيداً في عزلتهِ
مكتفياً بالخشبِ الصّلْدِ وبابِ القصرِ المفتوحْ
مكتفياً بروائحهِ
ملتمّاً حولَ بهاءِ الروحْ
والأشجارِ الهنديةِ والمعمارِ المجروحْ

*

آخرَ باراتِ البحّارةِ كانَ
وأولَ أغصانِ الروحْ

فيه تهجَّينا أسماءَ مرافئْ
وتلمّسنا أرصفةً
وتعلّمنا صفةً:
أن نثملَ في أفقٍ مفتوحْ . . .

٨/ ٩/ ١٩٨٤

وجوه «يافع» الثلاثة

الصخرةُ جبل
والجبلُ صخرة
والوادي سيفُ السيلِ الجبار
«يافع» زهرةٌ حجرية
وكوزُ ذُرةٍ من زمرد
من أي غراباتٍ جئتنّ بتيجانكن يا ملكاتِ حِمْيَرَ
يا من ترقصنَ حافياتٍ في أبّهةِ لعرش
والشاعرُ بين الصفَّين يميلُ يمنةً ويسرة
مترنحاً من القاتِ والوجوهِ الصبيغة
وراحةِ الآسِ في الجدائلِ المستدقة؟
الصخرةُ جبلٌ
والجبلُ صخرةٌ
والوادي سيفُ السيلِ الجبار
«يافع» قلعةُ حرسٍ
ونيرانٌ على قُننِ النسور

وشجرةُ بنٍّ ومدرّجاتُ آلهةٍ زراعيةٍ
حيثُ الماءُ تعتصرُه من الثدي القاسي
شفتا تفاحةٍ
ويدا أميرةٍ صغيرةٍ
وأزهارُ جبلٍ نافرةٌ نجهل أسماءَها
وتجمعُنا في باقةِ ذهولٍ

الصخرةُ جبلٌ
والجبلُ صخرةٌ
الوادي سيفُ السيلِ الجبّار

«يافع» وجهُ وليٍّ ناصع
متيممٍ غبارَ الكلسِ والبنادقِ والحدودِ الشرسة

يافع
أقولُ سلاماً لكِ
للقرمطيّ في الضميرِ
وللمقاتلِ في التنظيمِ الأولِ
لقصورِ حِمْيَر المترفعةِ
وللملكاتِ الحافياتِ على أفواهِ الآبارِ الشحيحةِ

أقولُ سلاماً لكِ، وأسألُ:
من يفتحُ للزهرةِ الطريقَ؟
من يردُّ تحيةَ السلاحِ؟

يافع، ١٤/ ٩/ ١٩٨٤

رحيل ٨٢

بعدَ حينٍ ستُغلَقُ كلُّ الغُرَفْ
وابتداءً من القبوِ
نتركُ هذي الغرفْ
غرفةً
غرفةً
ثم نبلغُ سطحَ العمارةِ
حيثُ المدافعُ
نتركُها هكذا. . . كالغرفْ
ثم نمضي
لنبحثَ في دمنا، أو خرائطِنا، عن غُرَفْ!

١٩٨٤/٩/٢٦

حسرة

ربما كنتُ طوّقتُ خصركِ، ذاك الرهيفَ
جهاراً
ونحن إلى لوحةٍ. . .
نتنظرْ
ربما كنتِ أنتِ انتظرتِ يدي
كي تمرَّ على كلِ تلك القرى
قد أكون أردتُكِ في لحظةٍ
غير أني أقاومُ
أعرفُ أن العزيزَ من الناسِ بيني وبينكِ
لكنني قد أمدُّ يدي. . .
ما مددتْ يدي.
وأنا الآنَ، ما زلتُ في حسرةٍ، أنتظرْ!

١٩٨٤/٩/٢٣

السيارة

«إلى عبد الجبار وهبي ـ أبو سعيد»

كنتَ تعالجُ سيارةَ موسكوفتش قديمةْ
وتدورُ بها في طرقاتِ الناسْ.
هل تصلُ السيارةْ؟
لم يُخْطئْكَ الإحساسْ
يوماً. . .
لكنّ السيارةَ ظلّتْ موسكوفتش قديمةْ
فمضيتَ وحيداً في طرقاتِ الناسْ،
وقُتلتَ وحيداً.

١٩٨٤/٩/٢٧

بار مطار أثينا

فجأةً أقفرَ البارُ
غادرتِ الطائراتُ الأخيرةُ في ثُلثِ الليلِ
والعابرون القليلون ناموا ببدلاتهم وكراسيّهم
تحتَ ضوءٍ خفيفْ.
لم يَعدْ أحدٌ يُرهقُ البارَ. . .
والآنَ يأتي الجميعُ:
محاسِبةُ البارِ
والقهوجيُّ الجميلُ
وكنّاسةُ القاعةِ
الحارسُ المتأخرُ دوماً
وبائعةُ العطرِ
مسؤولُ مستودعِ الخمرِ
والمكتبيّةُ
والساهرون الكثارْ
وهوميرُ أيضاً، وقِطُّ مديرِ المطارْ
. . . .

. . . .

هكذا يولَدُ الآنَ في البارِ بحرٌ،
وفي شاطئِ البحرِ يبني أغارقةُ الليلِ حانتهم كالمطارْ.

١٩٨٤/١٠/١٢

بار الشاليهات

يأتيه الصوماليون وتجّارُ القات
نهاراً،
وتجيء الفتيات
ليلاً
بِلُغاتِ الساحل
وثيابِ طيورِ الساحل.
أحياناً يأتيه فرنسيون
وألمانٌ غربيون
وأحياناً يهبطُ في الكأسِ العشرينَ ملائكةٌ مخبولون.

عدن، ١٠/ ١١/ ١٩٨٤

سيدي بوسعيد

بعد أن تُغلَقَ المقاهي، ويمضي السائحون الكثارُ
عن سِيدي بوسعيدٍ. . . أرى وجهَهُ، وليّاً مضاعاً،
غابَ في الصخرِ مثلما غابَ في البحرِ. أناديهِ
من غصونِ الشبابيكِ، أنادي:
بوسعيد!
بوسعيد!
أين التفتَ العابرُ الأخيرُ بغرناطةَ؟
أين التي أرادتْكَ بالحنّاء؟
أين افتقدتَ مفتاحَكَ الأولَ؟
هل هذه المساميرُ في الأبوابِ كانت تَشدّ ألواحَ
«جَيّانَ» التي أُغرقتْ؟
لماذا، إذن، نادى من البحرِ مَن يناديكَ:
بوسعيد!
بوسعيد!
البلادُ التي تحبُّ. . . بعيدةْ.

تونس، ١٧/ ١/ ١٩٨٥

استعادة

في قميصي المخططِ:
مقهىً على البحرِ
كرسيُّها الخيزرانُ
وأهدابُها عبرَ كأسِ النبيذ.
ففي أيّ خيطٍ قلادتُها البربريةُ
في أي خيطٍ أناملُها
أيُ كُمّ يخبِّئ، كالمزهريةِ، لحظتَها النافرةْ؟
أيُ نبضٍ تناهتْ بهِ
أيُ مقهىً بعيدٍ
وأيُ قناني النبيذ؟

تونس، ١٥/ ١/ ١٩٨٥

إحساس

قربَ دكانِ أشرطةٍ، سمعَ الأغنيةْ
بغتةً. . .
ألقت امرأةٌ حجراً في البحيرةِ.
كان رذاذُ المطرْ
دافئاً
يتنشفُ فوقَ زجاجِ المخازنِ،
والسروُ يقطرُ حولَ البحيرةِ.
هل سمعَ الشارعُ الأغنيةْ؟

تونس، ١٥/ ١/ ١٩٨٥

دوران

«غريبين في الليلِ»،
في بُحّةِ البحرِ، والفندقِ التونسيّ
وفي صفةٍ لم نجدْها. . .
وبوابةٍ لدهاليزنا لم نُرِدْها
إذن، دارت الأرضُ
دارت
ودارت
ونحن غريبانِ في الليلِ
نبحثُ في بُحّةِ اللمسِ عن صفةٍ لم نجدْها.

تونس، ١٦/ ١/ ١٩٨٥

منظر

شجراتُ الضواحي احتمتْ بضبابٍ شفيفْ
وهي الآنَ ترسمُ في السرِّ أثوابَ نيسان. . .
هادئةً مثلَ خيّاطةِ الحيّ
ذاهلةً مثلَنا حينَ ننسى
متلاشيةً في فضاءٍ شبيهْ.
إنها الآنَ تنسجُ ثوباً لنا
مات من يرتديهْ. . .

تونس، ٢٢/ ١/ ١٩٨٥

العزلة

يجلسُ في الغرفةِ
محتمياً من مطرِ الليلِ
ومن تَبِعاتِ صداقاتٍ فاترةٍ
محتمياً من شارعهِ المتلاشي في الظلمةِ
محتمياً ممّا يألفهُ
مرتمياً في منجرَفِ السيلْ

والغرفةُ زرقاءُ
خزانتُها زرقاءُ
شراشفُها زرقاءُ
وسائدُها زرقاءُ
حتى المرآةُ بها زرقاءُ. . .

وفي الغرفةِ يجلسُ.
كان الرعدُ يُجلجلُ بالأمطارِ الأولى
وتُصلصلُ في أوراقِ النرجسِ

في ركنِ حديقتهِ
أجراسٌ خافتةٌ . . .

وارتجفَ المصباحُ
انطفأَ المصباحْ .
وبحثتُ طويلاً في جيبِ قميصي عن شمعةْ :

عشرِ أناملَ من ماءٍ تتغلغلُ عبرَ زجاجِ الشبّاك
عشرةُ فتيانٍ فتحوا بالضْحكاتِ البابَ
وجاءَ الشارعُ معتذراً عن ساعاتِ تأخُّرِهِ
معتمراً، كالهرِّ الشاميّ، قلنسوةَ البحّار
وأصرَّ على أن يشربَ من كأسي نخب الأنخابْ .

والغرفةُ زرقاءُ
خزانتُها زرقاءُ
شراشفُها زرقاءُ
وسائدُها زرقاء . . .
لكنْ المرآةَ بها ما عادت زرقاء .

تونس، ٢٩/ ١/ ١٩٨٥

الزيارة

ياسمينٌ، ومصطبةٌ في الحديقةِ مرميةٌ لرذاذٍ غزيرْ
غيرَ أن الحديقة تلتمّ بي
تتشبثُ بي
تدخلُ البيتَ هادئةً
ثم تجلسُ صامتةً تتنفسُ في غرفتي
أيُ طيرٍ صغيرْ
سوف ينقرُ شَعري مساءً
وأيُ افتتانٍ أخير؟
ربما اللوزُ
ربتما قطةٌ متورطةٌ بخيوطِ حريرْ
ربما أشتهي أن أقبّل عينيكِ
واحدةً، ثم واحدةً
ثم أسكنُ في هدأةٍ
كي أقبِّل عينيكِ
واحدةً، ثم واحدةً. . .
هل أقول: انتهينا؟
هل أقول: انتهى اللوزُ؟

هل نامت الياسمينةُ تحتَ الرذاذِ الغزيرْ؟

. . . .

. . . .

. . . .

مطرٌ في الأصابعِ
غلغلةٌ في قميصكِ،
فالنبتةُ الاستوائية الآنَ
تصعدُ نحو السياجِ الأخيرْ.

تونس، ١٢/ ٣/ ١٩٨٥

نبيذ

يبدأ الحب بعدَ التماعِ النبيذْ
في العيونِ التي طالما أغمضتْ
والعيون التي طالما أومضتْ
والعيونِ التي لم تُرِدْ أن تضيق
والنبيذُ المرقرَقُ
بين السواحلِ والتلِّ
هل كان يبدأُ رحلتَه في الشرايين
كي يبلغ الإصبعَ الناحلةْ؟
النبيذُ المرقرَقُ
ينتظر الآن لحظته الفاصلةْ
ربما في تفاصيل أغنيةٍ
أو فراشٍ يضيقْ.

تونس، ٢٤/ ٣/ ١٩٨٥

أبيات

ليس لي من أعالي الرباطِ
سوى وردةٍ ذبلتْ
وقميصِ امرأةْ

فلنكنْ في المساءِ العجيب
ولنقلْ: أنتِ مَنْ ضوّأهْ

أيُنا قاربَ الاقترابْ
أيُنا حاورَ المنتأى؟

أينا كان في راحتيه
غيرُ جمرتهِ المطفأةْ؟

١٩٨٤/١٠/٢٧

غيمة

تدخلينَ سريري، كما تدخلُ امرأةٌ بعدَ منتصفِ الليلِ
لكنّ عرسَكِ أكملُ:
عينانِ برّاقتانِ
وبضعُ خطىً طائرةْ،
وقميصُ الفتى، والتلفتُ في موقعِ الساحرةْ.
ثم تأتينَ عبرَ التمهلِ
تتّركينَ لشَعركِ هذا الكثيفِ، فُجاءتَهُ
والتوقفَ في الركنِ
في أولِ الدائرةْ
ثم تأتينَ عبرَ التأملِ
تأتينَ في اللمسِ
في هاجسٍ للتنفسِ
من قبلِ أن ندخلَ الغيمةَ الماطرةْ.

برلين، ٣٠/ ٣/ ١٩٨٥

سؤال

من بعيدٍ. . أُحبكِ
لكنني من قريبٍ. . . أريدكِ.
هل نختلفْ؟

برلين، ٣٠/ ٣/ ١٩٨٥

بُحّة

كيف يختارُ صوتُكِ بُحّتَهُ في العناقِ الطويلْ؟
كيف يُمسكُ ذاكَ القرارَ الذي لا نراه سوى لحظةٍ. . .
هل يكونُ النبيذ. . .
هل يكونُ الهواءُ الذي غابَ في نملةٍ للأماكنِ
ذاك الهواءُ الذي ذابَ في البحرِ
تلك الجزيرةُ في المتوسطِ
حيثُ الشواطئُ مهجورةٌ كالنخيلْ؟
. . . .
. . . .
كيف أدخلُ في الصوتِ
في بُحّةِ الصوتِ. . . .
كيف سأمضي بها، ثابتاً، مثلَ قوقعةٍ في ممرٍ طويلْ؟

برلين، ١/ ٤/ ١٩٨٥

نبت متسلق

بعد عامٍ، أو اثنين، أبلغُ أعلى السياجْ
إنها الأرضُ
تدفعني من عروقي لأبلغَ أعلى السياجْ.
وهي الشمسُ
تختارُ طاولةً
ثم تُجلسني كي تقدمَ لي كأسَها طافحاً بالهياجْ.
والهواءُ الذي يتخلَّلُني
صار يعبقُ بي
وأنا أقطعُ الخطواتِ الأخيرة
نحوَ أعالي السياجْ...
ربما بعد عامٍ، أو اثنين...
لكن طيراً بنى عشَّهُ تحتَ إبطي يُسائلني:
هل ستمضي مع الخطواتِ الأخيرةِ
كي تتمزقَ، مخترَقاً، دامياً، بكسيرِ الزجاجْ؟
كيف أمسكُ نفسي، إذن؟
إنها الأرضُ

والشمسُ
والريحُ
ترفعُني، هكذا، نحوَ أعلى السياجْ.

تونس، ١١/ ٥/ ١٩٨٥

زهرة بوقية

تتّقدُ الزهرةْ
لا بأسَ أن نرسُمَ أشكالاً على الساحةِ
أو نُسْلِمَ للرفرفةِ الروحَ.
هواءٌ نائمٌ في زهرةٍ بُوقيّةٍ أيقظَنا اليومَ. . .
فمن يوقظُنا إن غامت الزهرةْ؟

١٦/ ٥/ ١٩٨٥

تنويع

نخلةٌ بالجزائرِ
في بَسْكَرةْ. . .
نخلةٌ مُسْكِرَةْ.

نخلةٌ سكنتْ حضرموتْ
قربَ خاناتِ دربِ البهارْ
إنها الآنَ في كلِّ دارْ.

نخلةُ القيروانْ
خبّأتْ تمرَها
في شفاهٍ تدغدغُ تحت اللسانْ.

نخلةٌ في مهاوي الجزيرةْ
وُضعتْ بين سيفينِ
ثم انحنتْ فوقَ قبرِ الأميرةْ.

نخلةٌ بالعراقْ
نبتتْ وَسْطَ جامعْ
نخلةٌ نَخَلَتْها المدافعْ.

تونس، ١١/ ٥/ ١٩٨٥

عناد

إلى «أ»

في هذه الليلةِ أيضاً يسقطُ الثلجُ
دعيني أتلمسْ وردةَ الهُدْبِ، إذنْ.
ساحتُنا بيضاءُ
والأيدي التي تدفأُ بالأيدي نسِيناها
فلم تعتنقِ الإصبعُ حتى إصبعاً أخرى
ولم نتركْ على راحاتِنا ما يتركُ الطيرُ على الغصنِ:
انطباعاً أو طباعاً.
هذهِ الليلةَ أيضاً يسقطُ الثلجُ
فهل ننتظرُ الصبحَ لنلقاهُ على الشرفةِ مرشوشاً كملحِ البحر؟
هل ننظرُ في المنفضةِ الملقاةِ كي نملأَها بالوردِ مسحوقاً؟
وهل نسكبُ في أقداحِنا البلورِ ماءً معدنياً؟
إنها المائدةُ الأخرى
مغطّاةٌ ـ كما شئتِ ـ بأصدافِ البتولا...
ابتعدَ البحرُ
وغطّى الثلجُ كفَّيَّ...
وما زلتِ ـ كما جئتِ صباحَ النظرةِ الأولى ـ عنيدةْ.

موسكو، ٢٢/ ١١/ ١٩٨٥

خذ وردة الثلج
خذ القيروانية...

«١»

ناعساً في قطارِ العرائسِ، أخترقُ الغابةَ الذهبيةَ. . .

كان المطرْ

ناعساً

نائماً في بيوت الضواحي

ونافذتي

والسجائرِ،

والغابةُ الذهبيةُ تمتدُّ حتى تلامسَ هذا القميصَ الخفيفَ.

الخريفُ؟

السجائرُ عادتْ رماداً،

وفي الشاي تنطفئُ الجمراتُ الأخيرةُ. . .

لا بأسَ. أهو الخريفُ؟

على الطاولةْ

ورقٌ للبياضِ، ورمّانةٌ من سمرقندَ

خبزٌ

وقنّينةٌ من دمِ الطيرِ،
والطاولةْ
لا تردّ السلامْ
لا تريد الكلامْ
إلى أين يمضي قطارُ العرائسِ بي؟
أين يمضي بهذا القميصِ الخفيفْ
أين يمضي بهذا الخريفْ؟

*

مدنٌ علَّمتْنا قراءةَ أسمائنا. . .
ثم ماذا؟
نحن لم نَبْنِ حتى حجارةَ طفلٍ
لنرمي بها في هدوءِ البحيراتِ
لم نَبْنِ حتى جناحاً لعينينِ
لم نتعلمْ كتابةَ أسمائنا في الصفائحِ. . .
هذي المدنْ
قد بناها سوانا
ولأهلٍ سوانا تكونْ
ولنا أن نغنّي لها
مثلما ينحني الغصنُ
أو مثلما يذهلُ الراحلونْ.

«٢»

في ضريحِ أبي زَمْعَةَ البَلَويِّ(*)، بخورٌ
وماءٌ من الكوزِ،
شمعٌ، وهدهدةٌ قيروانيةٌ.
يطلُعُ الصبحُ أخضرَ.
ليتَ النساءَ الحزيناتِ حولَ الضريحِ يودعنني
قبل أن أدخلَ السجنَ.
في الليلِ كانت قبورٌ هلاليةٌ تتمرغُ تحت النجومِ
وأسوارُ بغداد ترفعُ أبراجَها الحجريةَ.
مكتظةٌ بالمذابحِ أحداقُنا.
الليلُ يكتظّ بالهاربينَ،
القطاراتُ
والثُكْنةُ الحجريةُ...
لا تتركوني وحيداً.

*

هل سننأى طويلاً عن الأرضِ؟
عن كلِ طعمِ الطفولةِ تحتَ اللسانِ؟
وعن قطَراتِ الحليبِ التي أبرأَتْنا بها حُلْمةُ الأمِّ من رمدٍ؟
يهبطُ الثلجُ ريشَ وسائدَ،

(*) أبو زمعة البلوي، صحابي جاء في فتح شمال إفريقيا، ودُفن في القيروان. كان حلاق الرسول.

يخلعُ غصنٌ بقايا ملابسِه كي تطيرَ مع الريحِ.
عصفورةٌ هذه؟
والحماماتُ تحت الأفاريزِ
مرّتْ بنا عرباتُ المغيرينَ.
مرت بنا عرباتُ النجومِ.
فهل نتذكر ماذا تبقّى لنا:
عرباتِ الرحيلْ
عرباتِ الشتاء الطويلْ
عرباتِ العويلْ...

«٣»

آخرُ المقبرةْ
كان ملتبساً بالذي جاءَ هذي الظهيرةَ
هل جاءَ من كربلاءَ البعيدةِ
كي يتوسدَ مترين من تربةٍ باردةْ؟
والرجالُ الذين مشَوا خلفه شاحبينَ...
وقالوا له، مرةً: إننا سوف نمشي،
أقالوا له: سوف نمشي...
ولكنْ، إلى آخرِ المقبرةْ؟

❊

وطنٌ بين حمدانَ والقيروانِ اكتفى بالقصيدةِ والخمرِ
قالوا: دمشقُ. وقلنا: الفراتان.

قال: اهبطوا أرضَ مصرَ. . . إلى آخرِ السُبحةِ الذهبية.
كان الهلاليُّ سكرانَ في البارِ
لا مَرْبطٌ للجيادِ
ولا رُبُطٌ للجنودِ
وقال: اهبطوا أرضَ مصرَ.
المراثي انتهتْ
والأناشيدُ لم تبتدئْ.
مرةٌ في الحدودِ الهلامِ أردْنا فلسطينَ بالبندقية
والآنَ:
شيءٌ من الرملِ لي
وشيءٌ من الأمرِ لكْ
هل يدور الفَلَكْ؟

«٤»

هل تحبُّ التنزهَ بين المحطاتِ في باطنِ الأرضِ؟
كانت تقول له: إن موسكو تضيقُ.
يقول لها: الأرضُ واسعةٌ.
انظري في العيونِ الوسيعةِ عبرَ المحطاتِ،
وانتظري النبعَ.
أيُّ البلادِ العراقُ؟
وأيُّ المدائنِ بيروتُ؟
ثلجٌ خفيفٌ على شَعر غوغول. . .

جاءتْ حمامةُ نُوحٍ وحطّتْ.
سلاماً إذنْ.

*

مشربُ البيرةِ الفاترةْ
صامتٌ. لا غناءٌ ولا جمرةٌ.
السجائرُ في الجيبِ، والصمتُ في القلبِ.
تأتي النساءُ اللواتي يفتشنَ عنّا
اللواتي تناءَينَ عنا.
وتأتين أنتِ البهيةُ...
تأتين دافئةً، مثلما يدفأُ الثلجُ.
ألمحُ من فُرْجة البابِ وجهَكِ،
خصلةَ شَعرٍ أماميةً
وتهاويلَ من معطفٍ.
مشربُ البيرةِ الفاترةْ
صامتٌ.
لا غناءٌ ولا جمرةٌ.
السجائرُ في الجيبِ، والصمتُ في القلبِ.
تأتي النساءُ اللواتي يفتشنَ عنّا
اللواتي تناءين عنّا.
وتأتين أنتِ البهيةُ...
تأتين دافئةً، مثلما يدفأُ الثلجُ.

أَلمحُ من فُرجةِ البابِ وجهَكِ،
خصلةَ شَعرٍ أماميةً
وتهاويلَ من معطفٍ
مشربُ البيرةِ الفاترةْ
صامتٌ
أنتِ لم تدخلي
أنتِ لم تسبلي خصلةَ الشَعر لِصقَ جبيني
الذي يتغضّنُ
في مشربِ البيرةِ الفاترةْ.

«٥»

متعَباً كان عُقبةُ،
متعَبةً كانت الخيلُ.
والسهلُ يمتدُّ أبعدَ مما ترى الخيلُ،
أضيقَ مما يرى عقبةُ الليلَ.
والأرضُ خضراءُ.
زيتونةٌ لوّحتْ لجوادِ المحارِب، سارتْ إليه.
وعُقبةُ: هذا هو القيروانُ، المَقِيلُ.
أيا داخلَ القيروانِ، تؤرِخُ بالشمس ساعاتِنا
بالمساميرِ أربعةً
(الماضي في الشروق ساعتان)

دعْ لنا ساعةً للتأملِ
أو لحظةً للأملْ.

❋

لن أكونَ الغريبَ المُغَنِّي هنا
لن أكونَ الغريب
لن أكون الذي يتساءلُ عن فندقِ الضاحيةْ
لن أكونَ الذي يتهدلُ في زاويةْ
أنا من ساعةِ البرجِ
من ساحةِ الثلجِ، أنقلُ خطوي الخفيفَ
إلى جامعِ القيروان. . .
أقول لعُقبةَ:
عُقبةُ، أين الخيولْ
وأين نريدُ الوصولْ؟

«٦»

ساحةً بالطباشيرِ مرسومةٌ.
والذي كان غيرُ الذي كان.
ثلجٌ من القطنِ مرتسمٌ منذ يومينِ عندَ حدودِ التصوّرِ
زينةُ عرسٍ على شاحناتِ اللهانةِ.
شرطيٌّ سيرٍ وحيدٌ بكأسٍ زجاجيةٍ.
والسماءُ رماديةٌ.
ترسلُ الشمسُ برقيةً: نلتقي بعد شهرينِ

تلميذةٌ تتورّدُ في سرِّ هذا الشتاء،
وفي الصيف سوفَ ترى الحُبَّ أوّلَ،
سيارةُ الخبزِ مسرعةٌ.
يا رفيقي العزيز: هو الخُلْدُ أحمرُ حقاً،
ولكنّ لي رايتي الآنَ
لي نجمتي
والصواريخَ عابرةً
والذي كان غيرُ الذي كانَ.
والساحةُ ارتسمتْ بالطباشيرِ...
قُلْ كيف أحببتَها؟
كيف أحببتَ فيها... رفيقي العزيز؟

*

في الكنيسة ندخلُ
هذا العشاءُ الأخيرُ
وهذا هو الصَّلْبُ...
والبعثُ.
هل مريم المجدليةُ تعرفُ؟
تعرفني؟
لوددتُ لو أنكِ عابئةٌ بالذي في الهواءِ المباغِتْ
وددتُ لو أنكِ ما كنتِ عابثةً بالذي في الهواء المباغت
لو كنتِ أرهفَ...
لكننا ـ ولنصدِّقْ قليلاً حماقاتِنا ـ في العشاءِ الأخير.

«٧»

غرفةٌ في فضاءٍ من الشجرِ المترنحِ بالثلجِ
والريحُ تلهثُ عندَ النوافذِ.
في الغرفةِ الدافئةْ
ملصقٌ، وصحونٌ على الأرض مرميّةٌ
وسريرٌ من الكتبِ الحمرِ.
في الغرفةِ الدافئةْ
سوف يأتي البريءُ
فهل تدخلُ البارئةْ؟

*

هل أصلِّي، إذن، للتي قاسمتني السريرْ؟
هل أصلّي. إذن، للتي قاسمتني الضمير؟
كان بي ثَمَلٌ من نبيذ التلالْ
والحديقةُ تدخلُ
والوردُ يدخلُ
والتينُ يصنع سُكّرَهُ في هدوءِ السلالْ.
السماءُ هنا غرفتي
والسحابةُ فَرشي
والفتاةُ التي قاسمتني سريري مضت قبل أن يطلعَ الفجرُ...
باقٍ هو النهرُ

باقيةٌ كلُ تلك الغصونِ التي هدهدتني
وباقيةٌ لمسةُ الساحرةْ. . .

«٨»

ولدي!
هل أضعنا الطريقَ إلى البيتِ؟
كان لنا منزلٌ قد وُلدتَ به أنتَ.
لا شكّ أني هرمتُ
وذاكرتي وهنتْ مثل عينيَّ. . .
لكنكَ الآنَ يا ولدي تتساءلُ عن بيتنا!
كيفَ؟
ماذا أقولُ، إذن، للضيوفِ الذين يجيئونَ؟
ماذا أقولُ لمن يرسلونَ الرسائلَ؟
يا ولدي!
قل لهم: إنني أعرفُ الدربَ.
أَخبرهمو بالذي أتذكّرُ. . .
بيتي على النهر، لا شكَّ.
بيتٌ به نخلةٌ
وحديقةُ وردٍ وآسٍ
ونافورةٌ للحشائشِ،
ليمونتان، وأرجوحةٌ أنتَ تعرفُها جيداً.

ولدي!
موقفُ الباصِ كان قريباً من البيت،
قد كنتَ تقصدُه أنتَ يا ولدي حينما تقصدُ المدرسةْ
هل تذكرتَهُ؟
هل تذكرتَني؟
فلْتُعِنِّي بُنَيّ...

«٩»

ليلةُ الأحد الثامنةْ.
المساءُ المهيّأُ ينتقلُ الآنَ بين العماراتِ
يدخلُها، شقّةً بعد أخرى
حاملاً في قرارةِ أكياسِه المنتقاةِ هداياه:
لحماً قديداً
ورطلينِ من سمكٍ داخنٍ
وزجاجةَ فودكا
وخبزاً وخمراً
وأغنيةً للبياض البهيجْ
المساءُ المهيأُ حصّنَ عشاقَهُ خلفَ أبوابهم
ومضى
دون أن يتذكرَ أني وحيدٌ بعيد
وأنّ الأصابعَ مرهقةٌ بالضجيجْ.

«١٠»

لنقُلْ إن قبلَ الكلامِ انتهاءَ الكلامْ
لنقلْ لعصافيرِ موسكو السلام
للصبايا بساحاتها
ولنجمتها ساعةَ الاحتكامْ.
لنقل لبنادقِ موسكو السلامْ
للعيونِ التي لا تنامْ
للبتولا تضيءُ الظلام
للنوافذِ في ليلةِ العيدِ
للشقّةِ الدافئةْ
للحدائقِ
للراقصينْ
ولأغنيةِ العاشقينْ.
لنقلْ لسماواتِ موسكو السلامْ.

موسكو، ١٨/ ١١/ ١٩٨٥

وداعاً عدن!

منذ أن غادرتْكِ الدلافينُ
أحسستُ أن الطريقَ إلى حضرموتَ القريبةِ
أطولُ من لحظةِ النزعِ. . .
أيَّ الفراتاتِ أختارُ
من بعدِ أن نضبَ الفُلُّ من بئرِ ناصر؟
قد كان لي زورقٌ واحترقْ
كان لي منزلٌ لم أغادره حتى غرقْ
فلأقُلْ لا تزوري المضافةَ
حيث نثرنا الأراكَ
الأرائكَ
والدَّومَ والسيسبانَ الرزين
ولاتتركي في دمي اليودَ والملحَ
لا تتركي في لهاث الرئةْ
بعضَ رملكِ
هذا الذي كنتُ أستفُّهُ زاحفاً تحتَ نارِ القذائفِ
تحتَ الرصاصِ الكثيف.

❊

على رملِ ساحلِ أبْيَنَ
كنا نودعُ راياتِ يعربَ
كنا نودعُ نجماً براياتِ يعربَ. . . أحمرَ
هل تعرفينَ الوداعْ
وهل تذكرينَ الوداعْ
وهل تذكرينَ عدنْ
يا عدنْ؟

❋

هكذا قرَّرَ القادةُ/ الآلهةْ
هكذا يجدُ الماركسيُّ الحقيقةَ في النظريةِ لا في النظرْ
هكذا نتوهّمُ أن المطرْ
في سحابِ الكتابْ
هكذا لا نرى في السحابِ الزوابعَ
والرعدَ
والردَّ
والرِدّةَ القادمةْ
هكذا لا نرى فاطمةْ
في عيون البُنيّاتِ من يافعٍ
(يافع والشِّحر والقطن والحوطة وتريم وشبوة والحد ويهر ومكيراس
والبريقة ومودية ودار سعد والمكلا وبئر علي والمهرة وزنجبار)
لا نرى اللحظةَ القائمةْ

❋

لمساجدكِ المستكنّةِ كالأضرحةْ
لجنودكِ في المذبحةْ
للميليشيا
للنساءِ يكفّنّ بالصمتِ أبناءهنّ
للوجوه التي نُحِتَ الحقدُ فيها
للبلادِ مبرّأةً من بنيها
لمياهِ القمرْ
للسلاحِ الذي حارَ حتى انتحرْ
لأغاني البعادْ
لجبال الحِدَادْ
ولاسمكِ ذاكَ الجميل
لذكراه
للذاكرةْ
أمنحُ الدمعةَ العاشرةْ
كم حصارٍ سنشهدُ. . .
كم عدنٍ سوف ننسى
وكم مارجٍ سوف يَخضِدُ قاماتِنا النافرةْ. . .

❋

وداعاً عدنْ
وداعاً عدنْ
وداعاً، وداعاً، وداعاً، عدنْ

اللاذقية، ٣١/ ١/ ١٩٨٦

مائدة مهيأة

باركتُ هذا البحرَ
كان مبارَكاً
لكنني أحسستُ أن الملمسَ المائيّ
سوف يُعيدني نحوي
وأن قرابةَ الغرباءِ واحدةٌ.
ثلاثونَ انقضتْ.
والبحرُ يحملُني ويلقيني
وأحملهُ وألقيهِ
سلاماً أيها الأبدُ المطرزُ في القميصِ.
وأنتِ. . . ماذا تفعلين معي؟
انتظرتُ مدينةً أخرى
ولكن الذين أتَوا إليّ متوَّجين، تركتُهم. . .
وسألتُ عن عُري أقاسمهُ السريرَ
وكسرةَ الخبزِ الأَليفةَ
قطةٌ بين الموائدِ
والمدائنِ
أنتِ. . .
كالسرطانِ بين غمامتين:

الرملِ والبحرِ،
افترقنا دون أن نلقي التحيةَ
والرسائلُ لم تصلْ إلا لأسوارِ العواصمِ
كم تحاولُني دمشقُ
وأنتِ في البيضاء
كم كانت لنا عدنٌ وشاحاً من نباتِ البحر
ضوعاً من بناتِ البحرِ
شيئاً كالمنارةِ، ضائعاً، متخافقاً
بين السواحلِ
قهوةً ليليةً
خطَّ استواءٍ
في مداراتٍ ملوثةِ المياهِ،
سأتّقي جِلدي إذنْ،
سأظلُ بين الخطوِ والخطواتِ أنتظرُ الإله الطفلَ
قولي يا فتاةُ. . .
ألستِ تنتظرينَ جفنَكِ في معادلةِ الذهولِ؟
ألستِ ترتعشينَ حينَ ترينَ نجماً نافراً تحتَ الوسادةِ
ثم. . . ماذا لو أتتْ بغدادُ داليةً على الشرفاتِ
مثلَ الرازقيّ؟
سأكتفي بأصابعي

*

باركتُ هذا البحرَ. . .
أي مدينةٍ أرجو ستولَدُ حرّةً بين اليدين

أصوغُها في دورةِ الصلصالِ من نورٍ ونرجسةٍ
وأمنحُ كلَ بيتٍ رايةً، وأقولُ: طيري يا حمائمُ. . .
ولنكنْ حريةً أولى
لنعرفْ أننا الأغلالُ
نخرجُ من غلائلنا
لنلمسَ سدرةَ الملكوتِ
والناسوتِ
والحريةَ الأولى.

*

باركتُ هذا البحر
أدخلُ في سريرٍ ضيقٍ لأغوصَ في قاعٍ من الأعشابِ
ليلي برتقاليٌّ
وصبحي إثمدٌ
والخبزُ مما تغتذيهِ الطيرُ والأسماكُ
خبزٌ باردٌ
ويدان ساخنتانٍ. . .
لكني أناديكم جميعاً: إن مائدتي مهيأةٌ
بخبزٍ باردٍ
ويدين ساخنتين
أدعوكم لنأكلَ مرةً، فنطيرَ
أدعوكم لنمشي فوقَ هذا البحر!

دمشق، ٩/ ٣/ ١٩٨٦

شكراً لامرئ القيس

أخيراً
وفي غرفةٍ نصفِ مفروشةٍ
قربَ نيقوسيا
أتيتَ لتلقي على شفتيكَ السلامْ. . .
أمِن بعدِ خمسةِ آلاف ميلٍ
وجدتَ الكلامْ؟
أمن بعدِ أن سكَنَ الطُّحلبُ الميْتُ بيتَكَ
وانتثرتْ في البحارِ السهامْ؟
سلامٌ لدوحةِ تينٍ
سلامٌ لهذا الظلامْ
سلامٌ لقوقعةٍ خبّأتْ دمَها في نعاسٍ بَليلٍ
سلامٌ لهذا الحطام

*

لكأنّ نبعاً من يدينٍ نحيلتين
يزيح أغطيتي، وئيداً،
مثل فلاّحٍ يُزيحُ لحاءَ مشمشةٍ
ـ أتبرقُ فضةٌ بيضاءُ والدنيا رصاصٌ؟ ـ

كل ما حولي سواحلُ
هل دخلنا مرةً؟
مدنٌ يُقال هناك. . . بلداتٌ، قرىً، وعواصمُ
اختلفت بنا الطرقاتُ واشتبكتْ
أندخلُ في الخروجِ هنا؟
أنخرجُ في الدخولِ هناك؟
نائيةٌ مدينتنا
وناءٍ ذلك الأبدُ المجرَّحُ في الجفونِ
إني أريدُ يديكِ ناحلتينِ
لن أحيا طويلاً فاشربيني أنتِ،
لن أحيا طويلاً. . . فاقتليني.

❊

غيومٌ مثبتةٌ كالجبالِ الطباشيرِ
يمرقُ طيرُ السنونو
ويبلغُ برجَ الكنيسة في آخرِ الحي
ثَمَّ ثلاثُ شجيرات أرْزٍ
ـ سأرسُمها ذاتَ يومٍ ـ
ومنفضتي بالحلازينِ مكتظةٌ
والضحى أبيضُ
النبتةُ المنزليةُ تختصُّ
والطاولةْ. . .

أهذا الهديرُ البعيد؟
أهذا الدمُ المتراكضُ في مرفقٍ أو وريد؟
سلامٌ لنحلةِ هذا الصباح!

❊

أيامَ جئنا نذرعُ الطرقاتِ،
فكّرنا بأن الليلَ أقصرُ من مقدمةِ ابن خلدونٍ.
وقلنا: المغربُ الأقصى برانسُنا
تقينا القيظَ والقرَّ المسنَّنَ
ربما كنا صغاراً
ربما عدنا لنأكلَ حصرماً قد عافه الآباءُ.
أيةُ حكمةٍ في دورةِ الخُذروف؟
أيُّ الموتِ أهونُ؟
لم نقلْ حتى ولو في السرِ: أيُّ الموتِ أجملُ؟
سروةُ المرسى وسامراء
بسكرةُ التي التمّتْ بزاويةٍ على ينبوعها
والرفقةُ والفيتانُ يقتسمونَ ـ حتى القتلِ ـ صندوقَ الذخيرةِ
هكذا نمضي كما كنا،
تعلّمْنا... ولكنْ دورةَ الخُذروفِ
شكراً لامرئ القيسِ القتيلْ.

❊

إلى الجلّنارِ المبكرِ ترسلُ عصفورةٌ ريشةً
سنونو يطيرُ، مُسِفّاً إلى سنتيمترٍ من الشارعِ...

الشرفاتُ الصغيراتُ في وحشةِ المنتأى
والصباحُ انتهى منذ جاءَ الصباحْ
فمَن سوف يأتي؟
ومَن سوف تأتي؟
ومن ستلوِّنُ أقصى المُلاءةِ؟
من تحتفي بالأناملِ؟
من تختفي في ذهولِ الصباحْ؟
قواربُ أربعةٌ في بياضِ الجدارْ
قواربُ أربعةٌ في القرارْ.

❊

تتدخّلُ المرآةُ
كنتُ أريدُ صوتاً لا مثيلاً
غير أني عبرَ قاعاتِ المرايا:
أُغمضُ العينينِ أم أُغضي مع العينين؟
هذا الدربُ طال
ولم تزلْ تتدخلُ المرآةُ
أحياناً أغيبُ مرنَّحاً في ماءِ خلجانٍ مصغَّرةٍ.
أمامي يلمعُ الفوسفورُ
أعشابٌ من القاعِ المُخادِعِ في يدي ومحارةٌ
تتخاطفُ الأسماكُ
من حولي فراشاتٌ. قنافذُ. أنجمٌ. وعيونُ غرقى...

أيها الصمتُ السديميُّ الذي يقتاتني:
من أينَ يأتي الصوتُ؟
بعد هُنيهةٍ سأعودُ أخطو عبرَ قاعاتِ المرايا. . .

نيقوسيا، ٩/ ٥/ ١٩٨٦

ثلاثية الصباح

«١»

في صباحٍ بعيدٍ سأنهضُ
محتمياً بالطريقِ الذي ينحني هادئاً مثلَ قشرةِ بطيخةٍ
سوف أمنحُ نفسي إجازةَ يومٍ
وأُطلقُ عينيّ من قاعةِ القصدِ
«لا شيءَ لي» هكذا سوفَ أهتفُ
«لا شيءَ لي» سوفَ أهتفُ حتى لقبّرةٍ عابرةْ
ثم ماذا إذا ما مضى اليومُ؟
ماذا سأفعلُ بالنظَرِ الطلْقِ
بالمنظرِ الطلْقِ
بالناضر الطلْقِ
باللحظةِ السافرةْ؟

*

في مياهٍ جنوبيةٍ يهطلُ التوتُ، أبيضَ، أحمرَ، أسودَ. . . خضراءُ، خضراءُ. . . إني أريدكِ خضراءَ (يدخلُ لوركا!) وخضراءَ كانت أصابعُنا، الريحُ خضراءُ، والغصنُ أخضرُ. . . أفواهُنا في الظهيرةِ

حُمرٌ، هو التوتُ يهطلُ، والظلُّ يهطلُ، أغصانُ رمانةٍ مثقلاتٌ بزورقنا. سمكٌ دائخٌ في القرارِ القريبِ. النساءُ ينادينَ مستوحداتٍ بحنّائهنّ. الضفائرُ ملساءُ من غِرْيَنِ الشمسِ. نسمعُ هجسَ السلاحفِ. في بغتةٍ تختفي كالحصاةِ حُبيبةُ توتٍ.. تو... تو... تركضُ السلحفاتُ بها نحوَ قاعٍ شفيف.

«٢»

في صباحٍ قريبٍ سأنهضُ
مستطلعاً، مثلَ آدمَ (وِيتمانُ يدخلُ!)
ذاكَ الصباحَ القريبَ سأمضي إلى سروةٍ ما
وأبحثُ عن جُندبٍ ضجَّ فيها
سأسألُ فاختةً عن بنيها
وأسألُها أن تنادي ولو لحظةً، غافلاً أو نبيها
وأسألُ عن طائرِ الطّيطوى...
ـ ولكنه مرَّ...
* هل مرَّ يا فاختةْ؟
ـ مرَّ...
● والصوتُ يا فاختةْ؟
ـ ليس من سامعٍ بينكم
ليس من راحلٍ بينكم...
● آهِ... ما أهدأَ الموتَ يا فاختةْ!

*

ربما أتلمسُ رائحةً لو غفوتُ على زندِها خمسَ عشرةَ تنهيدةً. هل سنسمعُ في الفندقِ الساحليّ اضطرابَ الحصا في شواطئَ مهجورةٍ؟ أنتَ ملتبسٌ أيها الزعفرانُ. البخورُ الرمادُ على شَعرِها. والملابسُ متروكةٌ كالأريكةِ. كانت حبالُ القواربِ تقطرُ. لو كانتِ الأرضُ نرجسةً وانطوتْ لفتحْنا شبابيكَها. غيرَ أنّا الدُّوارُ الذي لا نريدُ له غيرَ طعمِ الدُّوارِ. الملاءاتُ قد تتوضأُ في الليلِ. والقارُ ينضحُ من قاربٍ في الظهيرةِ. يقطرُ، يقطرُ... أهو اضطرابُ الحصا في الشواطئ؟

أهو الرمادُ الجليل؟

«٣»

قبل هذا الصباحِ انتهضتُ
أتّركتُ على طرقاتِ الجبينِ العواسجَ والوخزَ
ألمحُ في ركنِ نافذتي أَرزةً في القمامةِ مقطوعةً
ثم ألمحُ أخرى ببيتٍ قريبٍ... أتُقطَعُ؟
مَن جمعَ العنكبوتَ إلى نجمةِ البحرِ؟
ماذا تخبئُ تلك التلالُ البعيداتُ؟
كان الضبابُ (غريبٌ هو الصيفُ)
يدنو كبحرٍ من القطنِ
كيف ستعلو البساتينُ والقططُ المنزليةُ من وحشةِ القاعِ؟
كيف السبيلُ إلى أن نرى؟
كيف نسألُ؟

برجُ الكنيسةِ في البُعدِ. . .
ناقوسُه يَرْتَرِنّ
يرترنّ
يرترنّ. . .

❋

أن نحبَّ إلى أن نموتَ (وبودليرُ يدخلُ!) تلك البلادُ التي شابَهتْنا، البلادُ التي أطعمتْنا بذورَ الشفلَّح، كمأتَها، والرصاصَ الغزيرَ. . . البلادُ التي سكنتْ دمَها مثلَ بيتٍ يضيقُ بمستأجِرٍ. . . أوَ ما آنَ إلاّ نحبّ بها؟ أوَ ما آن أن ننتهي كي نقولَ لها:
لا تميلي علينا
لا تَمُدّي يداً
نحنُ جئنا إلينا
فسكنّا الغدا
هكذا، كلَّ صبحٍ يجيءُ الصباحُ. . .
وفي كلِ صبحٍ نقولُ الكلامَ الشبيهَ. . . الكلامَ الذي
قد حفرناه طولَ الليالي المديداتِ. لا بأسَ.
لكنما الليلُ أقصرُ من أن تطولَ به شجراتٌ هلامٌ
لتصبحَ قمصانَنا. . .
هو أقصرُ من أن تطولَ الأفاعي به وهي تلتفُّ حولَ الضلوع.

نيقوسيا ٢١/٧/١٩٨٦

الينبوع

«١»

الظَهرُ إلى الحائطِ. والرصاصةُ تنتظِرُ. ليس في ظهركَ إلا وشمُ الإسمنتِ العربيِّ. أرضيةُ السجنِ وجزمةُ الفتى المتخصصِ بكسرِ الفِقْرات. الرصاصةُ تنتظرُ. أيها المتدرِّعُ بالعينينِ... السماءُ هابطةٌ. السماءُ ضيقةٌ. مثلَ حَجرٍ على وردةٍ. وأنتَ في المسافةِ بين الحَجرِ والوردةِ تفتحُ عينيكَ. يأخذُكَ المُقاتلُ إلى الملعبِ الرياضيّ. تُسدِّدُ: طلقةٌ واحدةٌ في الشاخصِ الحجريّ... والطلقاتُ الباقيةُ تطيرُ كالعصافيرِ نحوَ النجمِ والبحرِ. زمنٌ في عنقِ الزجاجةِ. والدربةُ في مُحاورةِ القتلِ فقط. الطبقاتُ لم تستقرَّ بعدُ. هكذا انسللتَ من معادلةِ الموتِ المحكمةِ. الظَهرُ إلى الحائطِ. والرصاصةُ تنتظرُ. دَعْ عينيكَ مفتوحتين في إغماضةِ الدهشةِ. دَعْ لنا مساحةً للحلمِ. حتى لو كانت بقدْرِ رصاصةٍ.

*

للبحرِ أرجعُ مرةً أخرى
كأني أحتوي عدناً بجيبِ قميصيَ الصيفيّ...
هل تجدُ الطيورُ مغارةً في البحرِ

أو تجدُ الفتاةُ فِراشَها في الصخرِ
أو يجدُ المُقاتلُ خندقاً؟
لكنني للبحرِ، هذا البحرِ، أرجعُ
أحتوي عدناً بجيبِ قميصيَ الصيفيّ
ألمسُها كأني ألمسُ امرأةَ السواحلِ
والقبابَ البيضَ
والأهلَ الذين نأوا. . .
ويهتفُ بي دمي:
إني إلى الأمواجِ أرجعُ
أحتوي عدناً بجيبِ قميصيَ الصيفيّ
أحملُها كوردةِ ساحرٍ
وأقولُ للعشاقِ: هذي وردتي
فتقدَّموا للبحرِ
أن سَمِيَّهُ صَدَفٌ
وأن شميمَهُ أحمرْ. . .

«٢»

أسميكَ الترابَ أيها الوجُه العربيُّ. أسميكَ مُوشَّحاً من سواحلَ مجهولةٍ. أسميكَ سنبلةً متناثرةً بين مضائقَ وصخورٍ. أسميكَ وأنتَ الغيابُ. أتقرّاكَ في هُلامِ اللحظةِ اللزجةِ. من يَهَبُنا أسماءَ أمهاتِنا؟ من يتركُ على الوسادةِ ريشةَ العنقاءِ؟ هكذا نستيقظُ

في صباحِ الخرافةِ. نغسلُ أيدينا من المعتَقَدِ. . .
ونقولُ: ها نحن أولاءِ أبرياءُ كالمرملِ. نقولُ:
الجليلُ لنا ولا نخجلُ. في صباحِ الخرافةِ تكونُ الكلماتُ
أجساداً. لن أسخرَ من الثورةِ. السفنُ تحفرُ
بابَ المندبِ. والطيرُ أكثرُ ارتفاعاً من الجبلِ. مرةً
قالت لي فتاةٌ فلسطينيةٌ، ونحنُ بين صيادي بيروت:
مِن هناكَ تأتي طائراتُ العدوّ. كانت سبّابتُها
تمسحُ العالمَ كلَّه.

*

عمّانُ في صنعاءَ، أم عجمانُ في بيروت
أم بغدادُ بستانٌ تسوّرهُ الرياضُ
أم المدائنُ قد خلتْ أسماؤها فتداخلتْ
حتى كأنّ حروفَها نسيتْ رواسمَها وراسمَها
لتنسينا البلادَ وعشبَها
واللَّهَ والأرضينَ والميلادْ
وتنسينا عروقاً شدَّتِ الأضلاعَ بالأضلاعِ
والعربيَّ بالنجمِ المخبّأِ
والصبيَّ بلعبةِ الأحفادْ
ولكني أخبئُ للصبيّةِ وردةً أخرى
أقول: ظُفارُ. . .
ثم تطيرُ أغنيتي بأجنحةِ العُمانياتِ

بالأثوابِ من كُحلٍ ونرجسةٍ
ومعنى النَّدِّ
معنى الضدِّ
معنى الرمحِ والأملودِ
أو أصغي إلى تنويعِ هذا العودِ
في عدنٍ
ومن عدنٍ
إلى عدنٍ
ومن نجدٍ
إلى يمنٍ
أخبئُ للصبية وردةً أخرى
وأرسُمها على بابِ المضيقِ وبدلةِ البحّارْ
وأنحتُها على الأحجارِ إذ أتوهمُ الأشجارْ
وأحفرُها على الأشجارِ إذ أتذكرُ الأحجارْ
وأفتحُها:
أعُدُّ وريقةً للـ ع
ثم وريقةً للـ د
ثم وريقةً للـ ن
ثم أكون في عدنٍ. . .
ومن عدنٍ أخبئُ للصبيّةِ من عُمانَ الوردةَ الأخرى

«٣»

نتناهشُ المطرَ في الحلمِ كأنه زندُ غزالٍ. الحلاجُ رئيسُ جمهوريةٍ.
وبيننا كنوزُ الأرضِ والغيمةُ غيرُ العابرةِ.
أيها الوطنُ الذي ضاقَ. أيها الوطنُ الذي مضى.
نحن مانحوك الهُويّةَ وحضورَ المائدةِ. علّقناكَ
مُلصقاً في «الفاكهاني» وجلسنا نحرسُكَ ببنادقِ الفقراءِ.
زرعناك وردةً في القنبلةِ اليدويةِ، وقلنا: لن ننزعَ
الصاعقَ. الأمرُ لكَ. فلتسكنْ غرفَنا المهددةَ.
لتقطعْ معنا الشارعَ الأخيرَ. المائدةُ معدّةٌ في الدامورِ.
فلتشربْ معنا هذه الكأسَ. إشربْ معنا هذه الكأسَ
وإلا تجرّعناها حتى القتلِ وكسرناها على رأسِكَ.

❋

كهذا الماءِ، نَزْراً، أنتَ
تأتي في ابتهالِ يدينِ ضارعتينِ
أو شفتينِ فاحمتينِ
أو لبلابةٍ تمتدُّ بين عريشةِ الرؤيا وسامراء...
مثلَ الماءِ، نزراً، أنتَ
تسكنُ بين لَحْجٍ والمُكَلاّ.
في مسايلَ أخطأَتْ أبارَها زمناً
فدارتْ في متاهِ العمقِ
مثلَ الماءِ، نزراً، أنتَ

ترجفُ لاقترابِ النجمِ
تلمحُ في بريقِ القطرةِ الأولى. . . السديمَ
كأنَّ بينَ الماءِ والملكوتِ سرَّ الغفلةِ الأولى
وسرَّ الرعشةِ الأولى
وتمتدُّ الأناملُ. . .
بغتةً
وتتمتمُ الشفتانِ:
تحت خُطا الصبيةِ شهقةُ الينبوعْ.

«٤»

في القوقعةِ البحريةِ تنصتُ إلى نداءِ الحورياتِ.
في ذرّةِ الرملِ تستنبتُ الأرجوانةَ. يا لَهذه البلادِ. . .
تأخذكَ ولا تأخذُ. مثلَ النجمِ لا يتّسعُ إلا في العينينِ.
مثلَ أغنيةٍ تقتربُ. الراقصُ ذو الترسِ الصغيرِ
والخنجرِ القوسِ يدخلُ الساحةَ لتكونَ سفينةً.
والنساءُ عيونٌ. من أيِّ دارةٍ أنتِ أيتها الحضرميةُ
المزركشةُ كشجرةِ الميلادِ؟ إذن. . . إلى دمّونَ أنتسبُ،

لأقولَ: غداً أمرٌ. وفي الحقيبةِ الخوصِ رائحةٌ
من عَرَقٍ سريٍّ يتقطّرُ في الوادي
فلنختبئْ وراءَ بوابةِ الصندلِ والنحاسِ.

لنختبئْ في مجمرةِ الوليِّ.
لنختبئْ لحظةً...
أريدُ أن أحبَّكِ.
أريدُ أن أخدشَ ذراعَكِ لأعرفَ دمي...

وأريدُ أن أستروحَ اليمنَ اليمان
أريدُ أن أجدَ الشجيرةَ حيثُ أرخى الجَدُّ خُصلتَهُ
أريدُ الريشةَ الأولى لأشعلَها
فلعلّ ذاك البرقَ يأتي بالسحابةِ من بلادِ الجان...
هل كان لي أن أسكنَ اليمنَ اليمان
شهراً...
ليسكنني
فينسجَ من خيوطِ قميصيَ الصيفيّ مئزرَهُ
ويكشفَ صدريَ العاري لنجمةِ أرجوانْ؟
أم أن لي في أولِ اليمن اليمان
غصناً
ومتّكأً
وخطّاً مُسنداً
وحجارةً شفّت بها العينان؟

عدن، ٢٠/ ٣/ ١٩٨٢

تكوين ٣٤

من قبلِ أن نأتي القواعدَ
كنتَ قاعدةً أمامَ اللَّهِ والطبقاتِ
كنتَ تُفتتُ الأحجارَ بين الناصريةِ والشمالْ
تقولُ للوردِ: التويجُ مخبّأٌ
وتقولُ للبرديّ: خبّأنا البنادقَ فيك
للورقِ: الجريدةُ أنتَ
للمتياسرينَ: إليَّ..
للفُوضى: سلاماً للذين يُنَظمون مدائحَ الفوضى
وينتقلون بين الناصريةِ والشمالْ.
لوجهكَ: الظلماتُ مُطِبقةٌ
لأهلكَ: ليس بعدَ الليلِ إلا الليل.
للتاريخِ: نحنُ الفجر...
لم ننزلْ على خيلٍ مُسَوَّمةٍ
فأطلقْنا خيولَ الجِنِ...
تجدحُ،
وانطلقنا قبل أن نأتي القواعدَ

نحوَ قاعدةٍ أمام اللَّهِ والطبقات. . .
كان مثلَنا في الناصريةِ.
مثلَنا في صورةِ الأسلافِ
والكوفيةِ الرقطاءِ
والدمِ مدلهمّاً في خطوطِ الوشمِ
أيامَ النساءُ محجباتٌ
في المآتمِ والقطاراتِ البطيئةِ
والمساجدُ تختفي في النخلِ
أيامَ الكنائسُ لم تزلْ بيضاءَ يونانيةَ القُدّاس
أيام المُسَمَّى، أنتَ: قاعدةً أمام اللَّه والطبقاتِ
سارت مثلَنا مقروحةَ الأقدامِ
تحملُ مثلَنا ما يحملُ الأسلافُ
وشَمَ الحِنكِ والكفّينِ
والمنشورَ أزرقَ
والرصاصةَ في عيونِ الخيلِ
تحملُ مثلَنا ما يحملُ الأسلافُ
بين الناصريةِ والشمالْ.

سنُعيدُ هذي الدورةَ الصمّاءَ
هذي الوردةَ المقطوعةَ الأعضاء
نُقتلُ في الخلايا

ثم نُقتلُ في المواقفِ،
ثم نُقتلُ في قواعدنا. . .
نعيدُ الدورةَ الصمّاءَ والوردةْ
نعيد رهافةَ الوحدةْ
ونسكنُ في التفردِ. . . في إخضرارِ الوشمِ
نسكنُ:
في خلايا لم ترشِّحْها الخلايا
في مواقفَ لم تُعَرِّفْها المواقفُ
في قواعدَ تحتفي بدمِ الزمانِ النذلِ. . .
ننأى في التفردِ
في تفاصيلِ الهويةِ والكلامِ
وملمسِ الأيدي التي وُشمتْ،
وإيقاعِ الرصاصةِ والسؤال:
أتطلُعُ الأشياء
فلتطلُعْ بنا الأشياءُ كالأشياء
تطلُعْ
رايةٌ حمراءُ في التكوينِ: بين الناصريةِ والشمال.

الانجراف (٢)

«إلى جليل حيدر»

بينما نتركُ السجِيّةَ للأغصانِ والريحِ والخريفِ الذي يأتي، وئيدينَ، معتبينَ، سعيدينَ. . الرضا بانجرافِنا في مياهٍ لم تكنْ بعدُ سرمداً. . في مياهٍ كانت الوصفَ والتهجيَ والسرَّ المسمّى، فأيُّ تمتمةٍ من رأسه رضوى تهدلتْ مثلَ صفصافاتِ بغدادَ في المُسَنّاةِ؟
أيُ النسوةِ الميتاتِ يندبننا الليلةَ؟ لو كانَ، يا جليلُ، الزمانُ النذلُ هِرّاً لأستأنسَ البسمةَ والصمتَ خافتاً، غير أنَّ الشجرَ ـ السمَّ ذاهبٌ في جذورِ الدمِ، في الأمِّ وهي تسألُ عن غيبةِ نجمٍ. .
في الحلمِ وهو الترابُ.

❋

للإلهِ الجميلِ، نحلقُ شَعر السمكِ القرمزيّ، نأكلُ
في الفِطر المساميرَ، أو زجاجَ قناني العرقِ المَسْتكيّ،
ها هوذا النارنجُ نارٌ في الراحتينِ. خُذِ المرأةَ. خُذْ
لوعةَ الأساريرِ. خُذْ هذا السريرَ. الملاءةَ. انتبهي. . .
جاءَ الإلهُ الجميلُ يا وردةَ السرِّ. الإلهُ الجميلُ يخطو
على راياتِ دكّاننا، ويخطو على أوراقِنا، ثم ينتقي

في بهاءٍ من سماواتهِ في فتىً غافلاً منا، ويُهديه جمرةً وفتاةً،
ويُدَنِّي له السحابةَ:
«طوعٌ لك يا مصطفى، السحابُ الترابُ»

*

مرةً كنتُ في دمشقَ. بها أمضيتُ قرناً ونصفَ قرنٍ،
وأمضيتُ الثواني مُدَجّجاتٍ. وكانَ الصخرُ في قاسيونَ ماءً.
أتدري يا جليلُ؟ اختطفتُ نسراً من القمةِ. ألبستُه
قميصي، وأطلقتُ الهتافَ: انطلقْ بعيداً إلى الأعماقِ
يا نسرُ، وانطلقْ في التهاليلِ. انطلقْ في الخريفِ،
في جهشةِ الأغصانِ والريح، لا تَعُدْ أيها النسرُ...
ابتعِدْ وابتعِدْ
وكُنْ أيها النسرُ الخريفيُّ مثلما تعرفُ النسرَ...
الوداعَ
الوداعَ
يا نسريَ الملتاعَ
أنتَ البقيةُ ـ السيفُ
إن خفَّتْ وإن أثقلتْ
وأنتَ السرابُ...

دمشق، ١٨/٨/ ١٩٨١

منازل

يدخلُ النخلُ في الظلِ
خبّأتُ عينيّ عني
وفي النهرِ أسريتُ
في الماءِ أدخلتُ ثوبي
ستمتصُّ هذي الأصابيعَ جنيّةٌ
أو سلاحفُ بُنيّةٌ.
تنتهي
أنتهي.
أيهذا المساءُ الذي لم يفاجئْ سواي:
مرةً حينَ لملمتُ صحنَ الطفولةْ
حين تمتمتُ في حفنةِ التمرِ اسمي
حين كان الهواءْ
ساكناً مثلَ زنجيةٍ في المساءْ
ساخناً مثلَ زنجيةٍ في المساءْ
أيهذا المساءُ الذي لم يفاجئْ سواي
كيف أدركتَني؟
كيف أسلمتَني للمياهْ
كيف علمتَني أن تكونَ المياهْ

في الأصابيعِ
أن تمسيَ القطرةُ المحضُ نجمَ الهداهْ؟

*

أستريحُ إلى غصنِ صفصافةٍ في سماءٍ ضبابٍ
وأستفُّ طيناً
غِرْيَناً . .
هل تراني اهتديتُ
هل تراني ارتديتُ الثيابَ التي ليس عندي سواها
هل تراني ارتديتُ الثيابَ التي ليس يُقبَلُ مني سواها
هل تراني ارتديتُ الشبابَ
الفتوّةَ
دشداشةَ الطفلِ؟

أهلي . . .
لماذا نكونُ البعيدينَ؟
إني استرحتُ إلى غصنِ صفصافةٍ
واستففتُ، على مَهَلٍ، غِرْيَنا
وارتديتُ الثيابَ التي تعرفون
ولكنكم ما تزالون عني البعيدينَ . . .
في هدأةٍ بين «حمدانَ» والجسرِ
في خُضرةٍ بين «حمدانَ» والجسرِ
في قارةٍ ضائعةْ

*

كيف لي، يا معلمُ، أن أتبعَكْ؟
كيف لي أن ألابسَكَ المعطفَ ـ الغيمَ؟
أن أهتدي بالنبوءاتِ
أن أخطفَ النورَ زاداً معكْ؟
كيف لي، يا معلمُ، أن أختفي في يديكْ؟
كيف لي أن أرى في خُطاي خطاياي؟
إقطَعْهما، يا معلمُ
دعني بلا قدمين. . . أتَّرِكْني أطِرْ زاحفاً
لاثماً قدميك اللتينِ ترودانِ ما لا أرى
كيف لي، يا معلمُ، أن أقتفي في الذرى
مسلكاً
ملكاً
وامتثالَ الكرى؟
هل ترى أستريحُ إلى غصنِ صفصافةٍ في سماءٍ ضبابٍ
وأستفُّ طيناً. . .
جرعةً
جرعةً
وعراقاً مَهيناً؟

*

في العراقِ المدوَّخِ بالطلقاتْ
في العراق الثقيلْ

في العراق الجميلْ
في العراق المعارِض بالصمتِ والأضرحةْ
في العراق الذي جَمَّلَ المذبحةْ
في العراق الذي دوَّنَ المذبحةْ
فوق بردّيةٍ
فوق سعفِ النخيلْ
في العراق الذليلْ
في العراق المسمّى
في عراقٍ أسميه وهماً
في عراقٍ نحيلْ
ذاهبٍ في خيوط القميصْ
في عراقٍ صغيرْ
ذائبٍ في عروق اليدينْ
في عراقٍ شفيفْ
ساكنٍ عتمةَ المقلتينْ
في عراقٍ خفيفْ
دائرٍ في دمي. . .
أنزعُ الآن، في السرِّ، أوراقَ وردهْ
أتركُ الوخزَ وحدهْ
ثم أمضي إلى آخرِ الكونِ
مستنزَفاً بالعراقْ.

❊

تمرُقُ الشاحناتْ
بعد منتصفِ الليلِ. . .
من أين تأتي الخيولُ التي تصطفي حلباً والجزيرةَ؟
أنّى تكنْ ينبتِ العشبُ في السرجِ
أنّى تَدُرْ تستدرْ نجمةٌ مثلَ زنبقةِ الماءِ
أيّانَ تهدأْ ترَ الماءَ منبجساً من سنابكها. . .
تمرُ الشاحنات
بعد منتصفِ الليلِ. . .
من أين تأتي سرايا الدروعِ التي تصطفي طُورَ سيناءَ
أو جبلاً بالحجازْ؟

❋

تمرقُ الشاحناتْ
بعد منتصفِ الليلِ. . .
من أين تأتينَ يا امرأةً ناحلةْ؟
تمرقُ الشاحناتْ
بعد منتصفِ الليل. . .
يهتز مهدٌ على القشِ مخضوضرا.
تمرقُ الشاحنات.

١٩٨١/٦/٢٣

لحظة

أحبكِ متلبسةً بانتظارِ اللحظةِ
مرتبكةً
مثلَ ورقةٍ قبلَ المطرِ
أحبكِ متلعثمةً حتى في «صباح الخير». . .
فهل نعلمُ في أيِّ صباحٍ تكونُ الطلقةُ
وأي قطرةٍ تسقطُ
وحيدةً
مرهفةً
في فُجاءةِ الاحتمالِ. . .

١٥/ ٤/ ١٩٨١

اكتناز

«إلى أونغاريتي»

الريحُ الثلجيّ يعضُّ بأسنانِ زجاجٍ
والعشبُ يغور
تحت سماواتٍ بيضٍ
لو كان السرُ عميقاً، لحفرنا مثل الخُلْدِ عن الجذرِ الأولِ. . .
ماذا ترسمُ قبرصُ غيرَ البحرِ
وغيرَ الذاكرةِ الإغريقيةِ؟
أخفيكِ، بعيداً في الصمتِ
أخبِّئُ ما يتنبهُ مني
وأقولُ: الليلةَ أرحلُ عن تركيبِ الصورةِ
والبيتِ
وأسألُ عن غيركِ. . .
أشجارٌ من أسلاكٍ في واجهةِ المخزنِ
والشارعُ يقفزُ
تمرقُ سياراتُ الأجرةِ فارغةً. . .
والإعياءُ يغيم بعينيّ،
وئيداً

رطباً
لا بأسَ، فهذي الليلةُ مرتْ
وتمرُّ الأخرى
وتمرُّ الفتيات
تمرُّ الأوراق.
. . . .
. . . .
ويبقى ما خبّأتُ عن الأوراقْ

نيقوسيا، ٢٥/ ١٢/ ١٩٨١

كحول

أريدُ أن أدخلَ في اللوعةِ، هذي الليلةَ
أعتدتُ طويلاً
وانتظرتُ العوسجَ المخضرَّ أن ييبسَ
أن يمنحَني الشوكةَ
في كفي
وفي العينين
في الصوتِ الذي يهدأُ. . .
هذي الليلةَ استأتُ طويلاً
وانتظرتُ النجمَ أن يخبوَ
أن يمنحَني العتمةَ
في كفي
وفي العينين
في النورِ الذي آلفُهُ. . .
إني انتظرتُ البُعدَ أن يشرقَ
أن يمنحني القدرةَ
في كفي
وفي العينين

في إغفاءتي...
انتظرتُ أن أدخلَ في اللوعةِ...
لا! يا أيها الواقفُ كالجلّاد
لا! يا أيها الواقفُ في الباب
لماذا... أيها الرأسُ الذي أحملُ؟
ما أوحشَ أن نبقى مع الزهرةِ
ما أوحشَ أن نبقى مع المصباحِ
ما أوحشَ أن نبقى مع النكرانِ واللَّهِ...
ولكني أريدُ أن أدخلَ في اللوعةِ هذي الليلةَ...
احترتُ طويلاً
والمساءُ امتدَّ
والصبحُ أتى
واللوعةُ البيضاءُ لم تأتِ
ولم تأتِ التي قبّلتُ منها شَعرها الأسودَ
لم يأتِ المغني
والشيوعيون
والطفلُ الذي علّمَني في ملعبِ الإغريق إمساكَ المسدسْ.
كأنّ هذي الأرجلَ الأربعَ للكأس
استعادتْ طينَها الأولَ
عادت تفتحُ البرزخَ بين الشيءِ والتكوينِ
بين الليلِ والليلةِ
بين الصمتِ واللوعةِ

فلأنتظرِ الطارقَ
ولأنتظرِ الطارقَ
ولأنتظرِ الطارق
. . . .
. . . .
. . . .
إني أفتحُ الشرفةْ:

تتكشفينَ، مدينةً تجدُ القرنفلَ فجأةً في لُعبةِ الخصلاتِ
بحرٌ غيرُ منتسبٍ لذاكرةٍ ومعنى
والعمائرُ تحتمي في رعدةِ الطيرانِ بالأزهارِ والشرفاتِ
صيدا ـ صور
صيدا ـ صور
صيدا ـ صور
أيَّ الموجِ نُمسكُ في الشواطئِ؟
لفتةَ الصيادِ حين يجيء؟
لونَ الماءِ أسماكاً؟
أمِ القتلَ المخبّأَ في اتحادِ البحرِ والأفقِ الملبَّدِ؟
أم هديرَ محركاتٍ خافتاً؟
أم نبضةً في القلبِ ضد القلبِ؟
صيدا ـ صور
صيدا ـ صور

صيدا ـ صور
نعرف أننا الشهداءُ والغرقى
ولكنا لأجلِ الثوبِ والأشجارِ نرفضُ أننا الشهداءُ والغرقى
ونرفضُ أن تكونَ حمامةٌ في ساحةِ الإعدامِ
أن تتحلّلَ الأقدامُ ماءً. . .
يا سماءً في يديّ
ويا بلاداً قاتلتني كي أراها خارجَ الذكرى
أقولُ. . مدينةٌ في الرسمِ أنتِ
وقريةٌ بين الطباشيرِ الملونِ في حقيبةِ مصطفى وجيوبِ مادونا
أقولُ لشرفةٍ بيضاء:
إن البحرَ أوسعُ من قرنفلةٍ.
أقولُ لمن تحبُ الزعترَ البريّ بالليمون:
إني اصطفيكِ أصابعاً تحتَ القميصِ القطن. . .
صيدا ـ صور، صيدا ـ صور، صيدا ـ صور
صيدا ـ صور، صيدا ـ صور، صيدا ـ صور
صيدا ـ صور، صيدا ـ صور، صيدا ـ صور

بيروت، ٢٢/ ٤/ ١٩٨١

اكتفاء

إذنْ، لم يَعُدْ أملٌ.
مرقتْ شاحناتُ النبيذِ.
الكنيسةُ تهتزّ في البعدِ
والعشبُ ينبتُ بين العظامِ القديمةِ
كانت بيوتٌ بلا أحدٍ.
يهبطُ السبتُ نيزكَ قطنٍ،
وفي حانةِ «الجرة» استيقظَ القطُّ
أهديكِ خيطاً.
لتبقَ المتاهاتُ لي.
يا إلٰهاً له لحيةُ العملةِ الورقيةِ
يا ملكَ البحرِ...
من أين تُهدي لنا أفروديتُ المحارةَ والزهرةَ؟
ارتفعتْ طائراتٌ هلاميةٌ.
عبرَ مائدتي سوف يَبْيَضُّ هذا النبيذُ القديمُ المفاجئُ.
أنذرَني جُندبٌ مرةً،
قال لي: منذ مليونِ عامٍ تعلمتُ كيف أغنّي برجليّ...
شيرازُ. شيراز. شيرازُ

شَيرزْتُ. أتْهَمْتُ. أنجدتُ
أعرقتُ. أصحرتُ. أبحرتُ
صرّفتُ فعلينِ. لي: الحبَّ والحربَ.
هذي البيوتُ التي ترفعُ الشمسَ لافتةً للسويديةِ
احتجبتْ خلفَ أشجارِها
وارتضتْ بالشواءِ.
الجبالُ القريبةُ في لحظةٍ تمَّحي...
والبعيدُ هو البحرُ.
أهدأُ في شرفتي.
فسحةٌ رطبةٌ تتناسلُ فيها الكلابُ الشريدةُ.
لو كان لي غيرُ هذا الجوازِ المزورِ لاستوطنتْ فأرةٌ رئتي.
في الجزيرةِ لا تدلهمُّ الغيومُ
فهل أنبتتْ كمأةً راحتي؟
بين صهريجِ ماءٍ وآخرَ عامٌ نريدُ له أن يحولَ ولكنه لا يحولُ.
انتظرْنا العمامةَ من زاجروسَ،
الحمامةَ من سفحِ سنجارَ...
قلنا:
الجليلُ البدايةُ
طاووسُ «زارا» النهايةُ
عنقاءُ رضوى
أبو الهول
فينيقُ...

في شقتي يدخلُ الزائرونْ
يدخلُ المنتهى والتآمرُ
للديناميتِ معي المزهريةُ
هذا الجهازُ الذي كم يسمّونه القلبَ.
أصنعُ:
إرهابيةً في مخدعِ الشقيقِ؟
صاعقاً من أنبوبِ المياهِ
مِجَسّاً في سلكِ الهاتفِ
فتىً من ترنُّحِ الجمرةِ
ساعة توقيتٍ من الوقتِ
ماركسَ من امرئ القيس
وأصنعُ في شُرفتي: شجراتٍ، وسرّاً، ومائدةً...
أيهذا الغريبْ
أيهذا الغريبُ المهاجرْ
أيهذا الحبيبْ
خلِّنا نكتفي لحظةً
خَلِّنا ننطفي في الحريقْ.

نيقوسيا، ٢٥/ ١/ ١٩٨٢

إذن نزنر هذا الوطن بالبترول والديناميت

كيف أدفعُ عن عشبةٍ كنتُ أمتصُّها غبَشَ الصيفِ
ماءً
وملحاً
وبعضَ مذاقٍ من الصمغِ
لذعةَ هندٍ
وخضرةْ؟
كيف أدفعُ عن نجمةٍ نزلتْ في منارةِ مسجدِنا
مرةً،
فاختبأْنا لها أسفلَ السلّمِ الحلزونيّ،
ثم اختبأنا بها
في الجداولِ ناشفةِ الماءِ
ـ في مسلكٍ من خيوطِ الدشاديشِ
في السعفِ والطينِ
حتى أتانا فتىً أسكنَ النجمَ صدرَهْ؟
كيف أدفعُ عن قامةِ امرأتي؟
كيف أدفعُ عن شرفةِ البيتِ
حتى ولو كان مستأجَراً؟

كيف أدفعُ عن سرِ قلبٍ وسهم
وقلبٍ واسمين
في جذعِ سروةْ؟
كيف أدفعُ عن أمهاتِ الجنودِ، الغرابْ؟
كيف أدفع عن خِلْيةٍ في دماغي، الخرابَ المفاجئْ. . .
كيف أدفعُ عن «صور»؟
كيف أدافعُ؟
كيف الهجومُ/ الهجومُ
الدفاع/ الهجومُ
الهجوم/ الدفاع
الدفاع/ الدفاع
الدفاع
الدفاع
الدفاع؟

*

ليس لنا، بعدُ، أن نتحدثَ عن هندسيةِ المتاريسِ
وبواباتِ «قصر الشتاء».
ليس لنا، بعدُ، أن نتحدثَ عن مساواتيةٍ
حتى لو كانت موروثةً كالسجاجيد.
ليس لنا أن نتحدثَ عن مارسيل خليفة إلا بُلغةِ النوتةِ.
ليس لنا أن نعرفَ عن مظفر النواب إلا طرائقَ الكوكتيل.
ليس لنا أن نقولَ إن كاتب ياسين اسمُه كاتب.

ليس لنا أن نتذكرَ جمهوريةَ «وجدة».
ليس لنا أن نسمي مارغريت تاتشر السيدة كوكلاكس كلان.
ليس لنا أن نقول إن فرنسا ذبحتنا
تحتَ أشجارِ الغوطةِ.
ليس لنا أن نقولَ إن الأكراد يُقتَلون كالهنودِ الحمرِ.
ليس لنا أن نقولَ إن موسوليني كان إيطاليّاً.
ليس لنا أن ننادي ماركس: يا أولَ الهيبيين...
ليس لنا أن نقول إن القنافذَ شائكةٌ.
ليس لنا أن نقفَ مع سميح القاسم إلا في النقاش «المبدئي».
ليس لنا أن نضعَ الألفَ مع الباء.
ليس لنا أن نضعَ الألفَ مع الميم
ليس لنا أن نجمعَ الألفباء والألفميم في فراشٍ آمن.
ليس لنا أن نجعل الألف إلى الألف هكذا:
آآآآآآ
آآآآآآ
ليس لنا أن نجعلَ الميمَ إلى الميمِ هكذا:
م
م
م م م
م م م
م م م م م م
م

م
م
م
م
م
م
ليس لنا أن نجعل الميم إلى النون هكذا:
من؟ من؟ من؟ من؟ من؟ من؟ من؟
من؟ من؟ من؟ من؟ من؟ من؟ من؟
ليس لنا أن نكتب مرثيةً للعراق.

*

إذن، فالطريقُ إلى عدنٍ
مغلقٌ.
والطريقُ إلى غيمةِ الجلّنارْ
مغلقٌ.
والطريقُ إلى أصفهانْ
مغلقٌ.
والطريقُ إلى منزلي في النخيلْ
مغلقٌ.
والطريقُ الذي ظل مستغرقاً بين بيروتَ والشامِ
مغلقٌ.
. . . . . .
. . . . . .

هل يكون الطريقُ الذي جئتُ ارتادهُ
نحو بيسانَ
يُغلَقْ؟

*

أعلينا أن نبعثرَ شَعر أمهاتِنا،
من سنجار إلى بني صاف؟
أعلينا أن نكشفَ
قبورَ الهجرةِ الأولى والعاشرةِ والمائةِ والألفِ
لنكتشفَ؟
أعلينا أن نزوِّج «الجازيةَ» يهودياً
ليهجسَ أبو زيد؟
أعلينا أن نأكلَ لحمَ الأفاعي شواءً؟
أعلينا أن نضعَ لحمَ أجسادنا تحتَ العظم؟
أعلينا أن نُشَظِّي الوحيدَ نثاراً كالألعابِ الناريةِ؟
أعلينا أن نسألَكَ أيها الربُّ:
لماذا خلقتَنا هكذا؟
أعلينا أن نبيعَ دمَنا كما نبيعُ ماءَ الوجهِ؟
أعلينا أن ننتظرَ فرسانَ خراسانَ وحدهم؟
إذن. . .
أعلينا أن نزنِّرَ هذا الوطنَ بالبترولِ والديناميتِ؟

*

يا وردةَ النارِ لا تستعجبي للنارْ

دنياكِ دارتْ، فلا للنجمِ فيها دارْ
يا وردةَ النارِ، أهلي أخمَدوا بالعارْ
نيرانَهم، واستوى التُجّار والثوّارْ

❋

يا وردةَ النارِ، لا بُدَّ السما تنزلْ
كالنجمِ في الليلِ، حتى عتبةِ المنزلْ
يا وردةَ النارِ. . . لا بدَّ القُرى تسعلْ
نيرانَها، والملا يمشونَ بالمشعلْ

❋

لا فائدةَ.
سعدي يوسف يكتب منذ ثلاثين عاماً.
يجربُ.
ويقتتلُ
ويحتقرُ الحكّامَ.
يقول: إنهم يقتلون القصيدةَ الجديدةَ. . .
لكني أسألكَ:
«ألم تجد شكلاً أكثرَ حداثةً من الموّال؟»
لا فائدةَ.
إذن؟
نزنِّرُ هذا الوطنَ بالبترولِ والديناميتِ. .
و؟

دمشق، ١٨/ ٤/ ١٩٨١

المضيق

تتطامنُ بين الينابيعِ، والقمرِ الجبليّ، وأشجارهِ
تتطامنُ في صمتِ أحجارهِ
تتطامنُ ملتوياً، والمسيلَ الضنينَ بأسرارهِ
ضيّقٌ أنتَ مثلَ لحاءِ الشجرْ
ضيقٌ أنتَ مثلَ الحجرْ
ضيّقٌ أنت بالعجلاتِ التي تشتهيكَ ولا تشتهيك
ضيقٌ أنتَ بالقادمِ المنتظرْ:
ضجةِ الطائراتِ
وضوءِ البيوتِ الذي كادَ أن يصطفيكْ.

❊

للسماواتِ هابطةً
كنتَ صمتَ المحاربِ، أو عرباتِ المدافعْ
للنجومِ العريضةِ
كنتَ ظلامَ الكمين، وبرقَ الفظائعْ
للنهارات
كنت الصدى وهو يوحشُ

للأرضِ
كنتَ السبيلَ المخادعْ

❋

أيها الممرُّ العسكري
الذي لم تنطبقْ عليه أحذيةُ الجنودِ
«راوندوزُ» قعلةُ أحمد الشيخ معروف
ينزُّ دمُها في الشلاّلات.
أيها الممرُّ العسكريّ
حيثُ تماثيلُ الإسكندرِ المقدوني
شعريةٌ وغيرُ شرعيةٍ، كالأسلحةِ:
إن قروييك يستدلون بأنسجتهم الصوفِ
بضائعَ البلاستيكِ المهربةَ.
أيها الممرُ العسكريّ
حيث شقّتْ كتائبُ «بوديوني» الطريقَ القديمَ:
لم يَعُد الجنودُ يوجِّهون رصاصَهم
إلى صدورِ الضباطِ القيصريينِ
أيها الممرُ العسكريّ
حيث تتأكّلُ الرطوبةُ
مقرَّ عبد السلام البارزاني:
كلُ الطرقِ المؤديةِ إليكَ تمرّ بغيركَ.

❋

في استدارتكَ العاشرةْ
قال لي حجرٌ:
آنَ أن نستريحْ.

*

للمصابينَ أوقدتُ ناري
وقلتُ لكل الجنودِ:
تعالَوا إليها
إلمسوا دفئَها
واتركوا قربَ بيتي بنادقكم
أيها المتعبون
امنحوا نارَنا حطباً تشتعلْ
وامنحوا جُرحَنا سبباً يندملْ
وامنحوني الأكفَّ التي اخشوشنتْ
أتقرَّ الطوالعَ فيها.

*

في استدارتكَ العاشرةْ
بين ماءِ الصخورِ الذي يتحدّرُ والهاويةْ
شجراتٌ ثلاثْ.

هجوم

غيرةٌ ليليةٌ في الشارعِ العشرين
في مقهى الشبيبةْ
في عيون الناسِ
في الأبوابِ
في لونِ العباءاتِ الرمادْ.
كانتِ الأبوابُ في مقهى الشبيبةْ
كجناحينِ حديديينِ في وجهِ التآمرْ
مغلقاتْ
إن شيئاً يزحفُ الليلةَ، من صمتِ المقابرْ
فوق وجهِ الشارعِ العشرين:
أنفاسُ التآمرْ.
كانت الأحداقُ فوق الشرفات
زهَراً أسودَ يبكي
ومن البُعدِ، من الريحِ، تئزّ الطلقات
ويظلُّ الشارعُ العشرون في العتمةِ يبكي
صدرُهُ المغبّرُ مفتوحُ الذراعينِ كجنديٍ يموتْ.

إنهم يأتونَ عبرَ الصرخاتْ
والصدى
والطلقاتْ
وعلى أحداقِهِم يرتجفُ الحقدُ عليك
إنهم يأتونَ كالقبرِ على مقهى الشبيبةْ. . .
ثم يمضون
مع العتمةِ
والريحِ
وصمتِ الطلقاتْ.

بغداد، ١٩٦٠

المحتويات